
رواية
هذه تخوم مملكتي
أحمد ابراهيم الفقيه

رواية

هذه تخوم مملكتي

أحمد إبراهيم الفقيه

هذه تخوم مملكتي

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبين الزمن الهارب والزمن الذى يرفض المجئ منطقة صفراء. مفازة صحراوية يغطيها الحصى وتحرقها شمس الظهيرة. وأنا نائم في سريرى يلفنى الظلام أرقب نفسى أركض وسط الخلاء ألاحقُ ظِل طائر أسود يعبر الفضاء فوق رأسى، أريد أن أحتمى به من شراسة الشمس التى تشتعل في قبة الكون. نائم في غرفة نومى، ولكن الطائر يقودنى إلى حلقات من النساء والرجال الذين يرقصون فوق الرمل. بشر ينصبون خيامهم ويقيمون عرساً في الصحراء. يضربون الطبول ويعزفون موسيقى القرب المصنوعة من جلود سوداء. نساء يزغردن ورجال يطلقون صيحات الابتهاج. أفرح بانبجاسهم المفاجئ وسط العراء. أتقلب في سريرى وأركض نحوهم أصافحهم وأعانقهم فاكتشف أنهم جميعاً بشر من دخان. يعود شطرى الراكض في الضوء إلى شطرى النائم في الظلام. أستيقظ مملوءاً بالفزع وعنف الشمس. أمد يدى أبحث عن كأس الماء، وأرى أثناء تمددى

مسهداً فوق الفراش أن طائر الصحراء قد تطاير ريشه في الهواء وتحول إلى عدد لا يحصى من الطيور السوداء تغطى سقف الغرفة وترف بأجنحتها الموحشة قريباً من وجهى. أطلق صرخة مكتومة لأننى أدرك لحظتها أن المنتحرين من نساء ورجال شاهدوا قبل قتل أنفسهم هذه الطيور السوداء. أحاول أن أدفعها عنى وأغمض عينى خوفاً من منظرها ولكنها تأبى أن تختفي. أضع الوسادة فوق وجهى، أحيط بها أذنى، أتقلب شمالاً ويميناً، أتوجع وأتألم، تستيقظ المرأة التى تنام بجوارى:

- إنك منذ أسبوع لا تنام.

تقوم من فراشها تبحث عن الدواء. أتناول في صمت الحبة المهدئة التى تأتى بها، دون أن أقوى على النوم. أترك السرير وأهرب إلى شرفة المطبخ المطلة على البحر. أجلس خارج الحلم أتأمل دوائر العتمة والفراغ. يضرب وجهى هواء البحر وتلمع فضة زبده تحت ضوء النجوم. أسمع هتافاً عذباً يتصاعد من قلب البحر ينادينى، وتمر لحظة قصيرة أشعر خلالها وكأن كائنات البحر جاءت تطرق بابى. أفتح الباب فأرى أطياف بشر لهم شفافية الماء. أترك البيت غير

عابئ بنداء امرأتى وهى تسأل من غرفة نومها لماذا فتحت الباب. انها لا تسمع طرقاً ولا هتافاً ولا ترى الكائنات التى جاءت تعبر بى الطريق وتصل بى إلى الشاطئ. أقف مبهوراً أرقب البحر. ثمة مدينة لها قباب من ذهب تتلألأ تحت الماء. يدخل البشر الذين لهم شفافية الماء إلى الماء ويشيرون لى أن أتبعهم. مسحوراً بلون الذهب الذائب في ثبج البحر أخوض الماء باتجاه المدينة المضيئة، أرتعش نشوة وانفعالاً وأنا أرى أمواج ضوئها تسحبنى إليها، وأسمع غناء كائناتها مبهجاً فاتناً ينادينى. أتوغل متحداً بالماء ومغموراً بالفرح، ولكن أياد كثيرة تأتى وتنتزعنى من أمواج الضوء والماء والبهجة، وتمنعنى من السفر إلى مدينة القباب الذهبية والطرب الذى يثمل القلب. تختفي المدينة المسحورة ويعود البحر كتلة من المياه السوداء. يأخذوننى محمولاً بين الأيادى إلى الفراش. ومثقلاً بالبرد والرطوبة ورائحة أعشاب البحر أندس تحت اللحاف أسعل وأرتجف. أجد أن الطيور السوداء قد اختفت فأحس بالامتنان لهذا المرض العضوى الذى أزال هذه الليلة أسقام الروح. أدفن رأسى في ليونة المخدة وأنا أسمعهم يتبادلون كلاماً عن مرضى وحاجتى إلى العلاج في

المستشفيات. أسمع زوجتى تشكر الجيران وتعتذر عن ازعاجهم. تفزعنى فكرة أن أجد نفسى ذات يوم ملقى مع المجانين في مصحات الأمراض العقلية وأدرك أن الذهاب إلى البحر كان حماقة وجنوناً. أستيقظ في الصباح أكثر انتعاشاً وعافية. غادرتنى حالة الصمت التى رافقتنى عدة أيام وأعادت لى محاولة الانتحار شيئاً من عقلى الغائب. وهارباً من المرض واحتمال الحجز في المستشفيات أرتدى بذلتى وأغادر بيتى لأعاود الاتصال بالدنيا. أذهب إلى الجامعة وأتجول في الأسواق وأقابل الناس. أضع شمعاً على وجهى أمنع به ظهور مشاعر الخوف والاعياء وأسد به الثقوب السوداء التى تملأ الروح. أرسم بالشمع وجهاً يضحك ويتكلم ويلقى الدروس. وجهاً جديداً أضلل به أشباح الليل والنهار. ولكن الشمع لا يقاوم طويلاً ضراوة الشمس. تعاودنى مشاعر الخوف من الناس عندما أراهم يقتحموننى بنظراتهم المشنوقة لأنهم شاهدوا شمعاً يسيل على وجهى، فأكره أن أراهم أو ألتقى بعيونهم الأسمنتية. أعتزلهم وأمكث طوال اليوم في دارى. ترانى فاطمة أمتنع عن الذهاب إلى العمل فتأخذ هى الأخرى إجازة من التدريس وتبقى لتمريضى، تحاول أن

تخرجنى من حالة الصمت والشرود فلا أعبأ بالرد عليها. يوقظنى أثناء الليل طرق على باب البيت، وأنهض لافتح الباب فأجد أنها قد أحكمت إقفاله وخبأت المفتاح لكى لا أمضى مسحوراً خاف كائنات الظلام. يأتى أخى في اليوم التالى ليسألنى مرة أخرى أن أذهب معه إلى عيادة الطبيب النفسى فلا أدرى ما أقول، كنت أرفض الاستجابة له، ولكن حادث النزول إلى البحر أفزعنى وجعلنى أدرك خطورة حالتى. أذهب معه وأجلس أمام الطبيب الذى يبحث في طفولتى عن شىء يجعله سبباً لمرضى. أعرف أن طفولتى بريئة مما ينسبه إليها ويدينها به، وأعرف أنه يرتدى معطفه الأبيض متنكراً في ثياب هذه المهنة بينما هو عميل سرى لكل أعراف المجتمع وقوانينه الظالمة التى جاء الآن يبرئ ساحتها، متواطئ مع كل المؤسسات الوحشية التى تدير شؤون الكرة الأرضية. لا أقول شيئاً يغضبه لكى لا يأمر بحجزى داخل أسوار عيادته النفسية. ابتسم له شاكراً وهو يعطينى علاجاً ويسألنى أن أعود مرة كل أسبوع إلى زيارته. أتناول العلاج ليوم أو يومين ثم أتركه وأرفض أن أعود إلى عيادته. ويرانى أخى نافراً من الأطباء فيقترح هذه المرة

الذهاب إلى فقيه ذاع صيته وعالج أناساً كثيرين مثلى، فهذه أمراض لا يعرف أسرارها إلا أهل ا من أمثال هذا الفقيه. إن كائناً من هذه الكائنات الخفية المجهولة التى تعيش معنا دون أن نراها قد انتقل من شقوق إحدى الخرابات ليسكن جسمى، وسيكون هذا الفقيه قادراً على إحراقه بالأوراد والأحجبة والطلاسم السليمانية.

أرفض أن أذهب معه إإلى الفقهاء ولكننى أستسلم بلا مبالاة لما يأتى عن طريقهم من علاج. تعلق زوجتى حرزاً في عنقى فلا اعترض، وتسقينى شراباً ممزوجاً بصمغ كتاباتهم فأشربه كارهاً مشمئزاً. أعود طبيعيا لمدة أسبوعين أو أكثر ويرى أخى هذه النتائج فيسرف في إبداء إعجابه ببراعة الفقهاء، ولكن المرض يعاودنى بعد ذلك. اعتزل الناس وأعتصم بالبيت، يلفنى الغمام الأبيض نهاراً وتزورنى أثناء الليل الطيور السوداء، وأجدهم في الجامعة يأخذون منى جدول الحصص ويقطعون علاوة التدريس ويجعلون منى محاضراً احتياطياً لا أهمية لحضوره أو غيابه. أذهب في حالات صحوى إلى هناك فلا أجد عملاً، وأعود إلى البيت بعد أن تكون فاطمة قد خرجت إلى مدرستها الابتدائية،

فأفتقدها وهى غائبة بينما أضجر منها عندما ألقاها بجوارى. مضى على زواجنا أكثر من ثلاث سنوات دون إنجاب. لم أجد ذلك شيئاً يستحق القلق، ولم يكن يعنينى كثيراً أن تكون فاطمة عاقراً أو ولوداً، ولكنها تعتقد بأن طفلاً يملأ فراغ البيت سوف يطرد فور مجيئه الأشباح التى تختبئ في الظلام وتهاجمنى أثناء الليل. رأيتها تبكى وتضع اللوم على نفسها فادعيت أمامها بأننى سبب العقم وليست هى.

ما إن أكملت تأثيث هذه الشقة حتى بدأت البحث عن امرأة أكمل بها طقوس انتمائى إلى هذا المجتمع. جاء زميل بقسم اللغة الإنجليزية يقول بأن لزوجته أختاً تأخر بها العمر قليلاً دون زواج، معلمة بالمدارس الابتدائية على مشارف الثلاثين ماتت أمها وتزوج والدها بامرأة أخرى فلم يعد لها أهل يزعجوننى بتدخلاتهم. ذهبت إلى بيته لألتقى بها. تأملتها وهى تجلس إلى مائدة الطعام قبالتى، وضعت عينيها في الصحن ولكن بصرى لم يغادرها. أعجبنى صدرها وفمها فتغاضيت عن قامتها القصيرة وتركت عروض الزواج الأخرى واقترنت بها. لم أنشغل بالبحث عن زواج يأتى عن طريق الحب في مدينة أغلقت شبابيكها دونى وخبأت منذ

أعوام الصبا الفتاة التى أحببتها في إحدى الصناديق فما عاد بإمكانى الاهتداء إليها. ولم أفعل ما يفعله هؤلاء الذين يصنعون حباً من نظرة خاطفة ثم يتوهمون كذباً أنهم تزوجوا حبيباتهم، ويكتشفون بعد أن تتبخر الأوهام أنهم تزوجوا الخيبة والمرارة. أردته منذ البداية زواجاً تقليدياً خالياً من الأوهام والأكاذيب. ولهذا لم أنتظر من هذه المرأة أن تكون وعداً وبشارة وسحائب عامرة بأمطار الفرح والدهشة. ولم تفاجئنى بشىء جديد عندما انتقلت للحياة معى. امرأة وديعة طيبة، تجيد طهى الأطباق الشعبية وتضع إرادتها تحت إرادة الرجل الذى تزوجها، وفية للتقاليد العريقة التى عامل بها المجتمع نساءه جيلاً وراء جيل، راضية بعالمها الصغير الذى لا يتجاوز مجتمع المدرسة التى تذهب إليها وشراء حوائج البيت من متجر قريب وحديث الجارات والزائرات عن أزمة اللحوم وندرة البصل والحمص. تستسلم في الفراش خجولة حيية كأنها تمارس إثماً. مضى العام الثالث دون إنجاب فلجأت إلى تلك الحيلة لأطرد الهم من قلبها وأحمل آثامها بالنيابة عنها. وخلال هذه السنوات الثلاث حاولت أن أحافظ على درجة من التواصل معها ومع الناس الذين حولى.

صممت بإرادة واعية أن أستجيب لكل الشروط التى تؤكد انتمائى إلى مجتمع العائلة الكبيرة التى تنتظر من أبنائها الطاعة والولاء. ولا أدرى ما الذى حدث بعد ذلك حتى بدأت أقدامى تسوخ في الأرض، ويتحول النوم إلى مفازة رملية تسكنها الأشباح وتحرقها الشمس. ولا أعرف من أى الشقوق انبثقت هذه الأجنحة السوداء تغطينى وتغطى سقف الكون، ولماذا تأتى كائنات الليل تطرق بابى دون بقية الأبواب. ولم أعد أريد شيئاً سوى أن أرحل إلى مكان غير هذا المكان وزمان غير هذا الزمان، أحمل اسماً غير اسمى ووجهاً غير وجهى وأرى وجوهاً غير هذه الوجوه وبشراً غير هؤلاء البشر.

طفت وأنا بمفردى غرف البيت أبحث عن شىء أشغل به نفسى. وقفت متهيباً أمام رف الكتب الذى يحمل مجلدات ألف ليلة وليلة. أضنانى الصراع مع هذه الأسطورة وسعيت جاهداً لأن أتحرر من سطوتها ونفوذها فهل ما زلت أتفادى الوقوع في أسرها وأخشى سحرها وتأثيرها على حياتى؟ بدا لى مضحكاً أن أطرح تساؤلاً مثل هذا. فها أنا أحن إلى لحظة من تلك اللحظات التى كنت أهرب منها. ولكن من أين لألف

ليلة وليلة أن تحقق لى عالماً يشبه عالمها في هذه البيئة التليدة التى حافظت على عفتها وتحصنت ببؤسها وعقمها ومنحت نفسها عطاء أبدياً لرياح الصحراء. لقد استفردت بى هذه الأسطورة في غربتى وداهمتنى بأجوائها السحرية وسط بيئة تخلت عن حكمة المجتمعات البدوية التى تعادى بهجة الحياة الفانية وانهمكت في مغامرة الاحتفال بالذات، تفرح وتغنى وترقص على أضواء قناديل القلب.

مددت يدى إلى الجزء الأول ضاحكاً كأننى أتحدى كائناته الوهمية أن تفعل معى شيئاً يقهر بيداء الروح والقلب. وخرجت بالكتاب إلى الشرفة لألتقى بشهرزاد في أول حكاياتها عن التاجر الذى أكل تمرة ورمى بالنواة فإذا بعفريت طويل القامة يشهر سيفاً فوق رأسه ويقول:»قم حتى أقتلك كما قتلت ولدى بهذه النواة«. ويتحول عمل بسيط تافه برىء مثل إلقاء نواة في الخلاء إلى جريمة يستحق صاحبها عقوبة الموت. وينبجس بعد ذلك ينبوع الحكايات التى تتوالد من بعضها البعض مثل صندوق العجائب، ويأتى الشيخ الذى يجر غزالته والآخر الذى يجر بغلته والثالث الذى يجر كلبتيه، وجميعها كائنات بشرية مسخت بهائم وحيوانات. من

قال ان شهرزاد تتحدث عن عالم أسطورى ولا تتحدث عن هذا العالم المعاصر الذى التقى كل يوم بكائناته الممسوخة وسيوفه المشهورة ضد كل من تعفف عن أكل النواة ورمى بها إلى الأرض.

- قم حتى أقتلك.

لن أقرأ الكتاب فقط، بل سأعيد دراسته وكتابة بحث عنه. لن أبحث هذه المرة عن الجنس والعنف وقصص التشويق والإثارة، لن أبحث عن أخبار العاشقين وأغانى الجوارى خلف الخدور. ولن أستحضر شيئاً مبهجاً من عوالم اللعب والمغامرة، لأننى لا أملك مزاجاً لذلك. سأبحث عن أكثر جوانبها رعباً وأجعلها موضوعاً لمحاضرة أشارك بها في موسم المحاضرات بالنادى الأدبى. سأبحث عن قضايا المسخ والتشويه والموت والانتحار وكيف عالجتها قصص شهرزاد لعلها تضىء شيئاً من محنتى.

- قم حتى أقتلك.

سأكتب عن هذا القتل وهذا السيف الذى ظل معلقاً فوق عنقها يدفعها إلى سرد الحكايات وتوليدها الواحدة من رحم الأخرى بحثاً عن النجاة والانعتاق من الموت العبثى.

وسأكشف عن حيلتها عندما جاء ت في أولى لياليها تهجو شهريار في وجهه وتلبسه أردية هذا العفريت الذى يشهر سيفاً للقتل فتقاومه بقوة الحكاية وسطوتها وتعلن بذلك عن مخططها الذى ستواجه به شهية شهريار إلى القتل ورؤية دم البكارة مختلطاً بدماء الأعناق المقطوعة.

أحضرت أوراقى وصرت أقرأ وأنقل ملاحظاتى. بدأت من خلال فعل الكتابة أتحرر من كآبتى وأستعيد ذكريات الدهشة الأولى عندما التقيت أثناء طفولتى بقصص الأطفال المستوحاة من هذه الأسطورة. تنشر لى الحكايات بساطها السحرى فأنتقل من دروس الإملاء والحساب إلى عوالمها الأسطورية. أطوف بمدائنها، وأتناول الطعام على موائد ملوكها، وأرافق على باباً إلى مغارة الكنز أملأ منها جيوبى بعقود اللؤلؤ والمرجان والياقوت، وأستخدم مصباح علاء الدين ليأتى خادمه الجنى قائلاً:

- لبيك عبدك بين يديك.

فأصدر له أمرى بشنق جميع مدرسى الحساب وقواعد اللغة وإشعال الحرائق في كل المدارس لكى أستيقظ في صباح اليوم التالى فلا أجد مدرسة ولا مدرسين. كان

الاستغراق في عوالمها بديلاً لبؤس الواقع وهروباً منه، وها هى تقدم لى اليوم ما كانت تقدمه لى عندما كنت طفلاً.

رأتنى زوجتى أعود إلى العمل والكتابة فأبلغت أهلها وأهلى، وسمعوا في برنامج إذاعى خبراً عن المحاضرة، فتوافدوا على البيت لتهنئتى، حتى الأخت الكبرى التى تزوجت فقيهاً غاب بها في إحدى الواحات، جاءت لزيارتى يوم تقديم المحاضرة. اكتشفت أن ملامحها صارت الآن تشبه ملامح أمى، وأيقظت بحضورها حنيناً في نفسى إلى ذلك العالم الذى غمرته مياه الزمان. تمنيت أن تبقى معنا ولكن الفقيه الذى جاء بها أعادها مرة أخرى إلى صحرائه. داهمتنى رغبة لأن أزور البيت الذى شهد سنوات التكوين الأولى عندما كانت أمى على قيد الحياة. وهازئاً من منطق الطبيب الذى يقول بأن أمراضى جاءت من تلك المرحلة قررت الذهاب لزيارة بيتنا القديم. مضت سنوات عديدة لم أذهب خلالها إلى تلك الشوارع والبيوت التى انطفأت فيها الحياة بعد أن هجرها الناس إلى العمائر الجديدة ومصاعد الكهرباء. لم تكن هناك عاهات نفسية وإنما بحر وسماء وبيوت تتكئ على بعضها البعض وأزقة تتشابك في عناق لا

ينتهى. هبطت إلى الشارع أبحث عن سيارتى فتذكرت أن أخى أخفاها عنى بحجة إصلاحها، فهو لا يريدنى أن أقودها قبل أن أتعافي من مرضى. أخذتنى سيارة الأجرة إلى هناك وما أن وصلت إلى مداخل المدينة القديمة ورأيت البيوت التى تحول بعضها إلى أنقاض وظل بعضها الآخر يمتلئ بالشقوق، حتى أحسست بالوحشة تحط في صدرى وتبدد ما كان يغمرنى من إثارة وشوق وحنين. لا أستطيع أن أنسى كيف كانت هذه الأزقة عامرة بدكاكين العطرية، وصناديق الفاكهة والخضار التى تملأ الأرصفة، وما تعج به من رجال يرتدون الملابس الوطنية، و نساء يلتحفن الأردية البيضاء، وأطفال يركضون ويلعبون، وباعة متجولين ينادون على بضائعهم ويصنعون صخباً وضجيجاً يتواصل ليلاً ونهاراً. انطفأ الآن ذلك الضجيج وتحولت تلك البيوت والحوانيت والحمامات والكتاتيب إلى خرابات مهجورة لا تسكنها إلا الغيلان. وعندما صادفت في الطريق بيتاً أعادوا ترميمه وطلاء جدرانه وأسكنوا به إحدى العائلات أحسست بالالفة والأمان، وجاءت رائحة الطعام تزيل شيئاً من وحشة المكان. وصلت إلى الزقاق الذى أعرفه أكثر من أى موقع آخر في

هذه المدينة. كان زقاقا صغيراً مغلقاً يضم صفين من البيوت، ثلاثة في كل جهة وبيت سابع ينتهى عنده الزقاق ويقع في مواجهة المدخل هو بيتنا. بيت من طابقين وصحن كبير مفتوح لا سقف له إلا السماء. وثمانية غرف تتوزع بين الطابقين تتقاسمها ست عائلات، منها من اكتفي بغرفة واحدة في حين كان لنا غرفتان. كنت لا أرى الباب إلا مشرعاً على الدوام. يسدلون خلفه ستارة من الخيش ويبقونه مفتوحاً طوال ساعات النهار. كان جيراننا في البيت يتغيرون، ولكن رجلاً يصنع الجرار اسمه أبو خطوة ظل مرافقاً لنا بأسرته، يصنع أباريقه وجراره بإحدى الغرف ويجففها فوق السطح. وكانت صاحبة البيت المحاذى لبيتنا امرأة مسنة اسمها الحاجة وردة، لم أعرف إلا بعد أن كبرت أنها تزوجت في صباها ضابطا تركياً هرب أثناء الغزو الإيطالى وتركها وهى ما تزال بخضاب العرس، وانتقاماً منه فتحت بيته للترفيه عن الإيطاليين. ثم هجرت هذه المهنة وحجت إلى الكعبة واشترت هذا البيت الذى تؤجر غرفه مفروشة للعائلات القادمة من الريف، وعندها عرفت السر في أنها كانت دائماً تحتفظ بزينتها كاملة وتصبغ شعرها بطلاء أسود وترتدى عطوراً لا

تعرفها النساء في حارتنا. أما البيت الذى يلاصق بيتنا من الناحية الأخرى فلم أعد أذكر منه إلا الغرفة الكبيرة التى تقع بمدخل البيت. يقطنها فقيه يكتب الأحجبة ويطرد الجن ويعالج النساء العقيمات هو الشيخ الصادق أبو الخيرات، وكانوا يسمعونه يتحدث أحياناً مع نفسه فأشاعوا عنه أنه يخاوى إحدى الجنيات وهى التى تساعده على قضاء حوائج الناس الذين يأتونه طلباً للعلاج. وكنت أذهب إلى غرفة الشيخ في المواسم والأعياد، أحمل له من بيتنا طعاماً لكى لا يبقى محروماً من طعام أهل الإنس الذى لن يلقاه عند امرأته الجنية كما كان يقول أهلى.

وقفت أمام بيتنا واجماً. كان جزء كبير منه تهدم وتكدست حجارته تسد المدخل. أردت أن أتسلق كوم الحجارة لأنفذ إلى داخل البيت وأرى الغرف التى لم تتهدم ولكننى تخليت عن المحاولة بعد أن زلت قدمى منذ أول حجر وطأته. كان الوقت قبل الغروب بقليل. وكان المكان موحشاً خاوياً، لا أثر لإنسان يعيش أو يمرق من هناك. والبيوت كأنها اطلال مدينة دمرها الزلزال منذ ألف عام. جاءت الكآبة تعصر صدرى وتدفعنى إلى البكاء. أردت أن أهرب من

وطأة هذا المشهد، حاملاً معى حصاد الخيبة لزيارة البحث عن زمن تقوض وانتهى. ولكن رائحة بخور تتصاعد من مكان قريب أوقفتنى ذاهلاً في مكانى. كانت رائحة شذية ذات عبير غريب أحسست به يتدفق في صدرى ويملأنى برعشة الانتشاء. أغمضت عين رافعاً رأسى، مستنشقاً هذا العبير الذى لا أذكر أننى شممت عبيراً مثله. اكتشفت أن لرائحة الخور مصدراً هو الخرابة التى كان يسكنها الشيخ الصادق. اندفعت إليها مبهور. كان باب الخرابة مخلوعاً فدخلت إلى عتمة السقيفة المتربة وقد ازدادت الرائحة نفاذاً وقوة. وقفت أمام باب الغرفة التى يسكنها الشيخ. كانت الغرفة تحتفظ ببابها الذى كان موارباً. دفعته قليلاً فأصدر الباب صريراً وكشف عن نور خافت يتسلق بلهاثه الجدران. وقفت للحظة متهيباً. لعلها شمعة أوقدها أحد المؤمنين بكرامات الشيخ وفاء له وإحياء لذكراه. ولكن من أين جاء هذا البخور الذى يغمرنى بنشوته المذهلة؟ دفعت الباب ودخلت، وما أن وضعت قدمى داخل الغرفة حتى تبدى لى الشيخ الصادق أبو الخيرات جالساً فوق سجادته تماماً كما تعودت أن أراه منذ ثلاثين عاماً مضت. لا أردى إذا ما كانت هذه اللحية الكثيفة

البيضاء، بيضاء ذلك الوقت، ولكن ملامحه ظلت مطابقة للصورة التى اختزنتها الذاكرة. هذه هى جلسته كما أذكرها وسجادته ذات الأهداب الذهبية ومسبحة العقيق مضيئة بين أصابعه وكتب عتيقة سميكة بجواره وموقد النار يضوع بالأبخرة كما أراه الآن. لعلنى أحلم أو أتخيل. ولكنه هو بكل الطقوس التى كان يحيط بها نفسه. أطلقت السلام أريد أن أختبر فيما إذا كان الرجل حقيقة وليس مجرد طيف صنعته العتمة والأوهام. سمعت الرجل يرد السلام مشفوعاً برحمة ا وبركاته كما تعودت أن أسمعه أيام الطفولة. ذات الصوت الواهن الضعيف بنبراته الودودة الحنونة. كيف تراه حافظ على البقاء بهذه الهيئة طوال هذه العقود. لعله لم يكن ذلك الوقت شيخاً طاعناً في السن كما تصورته. أذهلتنى المفاجأة فلم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول. وقفت صامتاً وسط العتمة المضيئة، أرتوى بالعبير وأنظر إلى موقد النار. رآنى حائراً فدعانى بإشارة من يده إلى الجلوس مفسحاً لى مكاناً بجواره. جلست صامتاً أتابع خيوط الدخان التى تتصاعد من الأعشاب المحترقة.

- كان والدك رجل صلاح وتقوى.

لم أكن أتوقع أن يعرفنى ويهتدى إلى الطفل الذى غاب عنه ثلاثين عاماً، تغيرت خلالها ملامحه وغمرت الظلال وجهه وقلبه. واصل حديثه عن والدى قائلاً:

- إنه يذكرك دائماً ويرعى خطاك.

ها هو يتحدث بلهجة رجل عاد لتوه من العالم الآخر. لعل أفضل شىء أفعله هو أن أهرب من حضرة هذا الرجل الذى يتكلم لغة الأشباح. طمأنت نفسى قائلاً بأن هذه هى اللغة التى يتحدث بها أمثاله من الفقهاء الذين يعاشرون الأرواح ويتصلون بعوالمها الخفية المجهولة، ولا بد أن الفضل في بقائه محتفظاً بصحته رغم تقدم العمر إنما يعود لأطعمة أهل الجن التى تقدمها له زوجته.

- سوف تنال بعون ا ما جئت من أجله.

ما الذى تراه يظن أننى جئت من أجله ؟، لعله ظن أننى جئت طالباً الاستعانة بأوراده وأعشابه وأصهاره من أهل الجن على قضاء إحدى الحوائج. هل أقول له أنه ما كان يخطر ببالى أن العمر قد امتد به إلى هذا اليوم ؟. وأننى ما جئت إلى هذا الزقاق إلا لأن قراءاتى في ألف ليلة وليلة أيقظت في ذهنى عتيق الذكريات فجئت لإلقاء نظرة على هذا

العالم القديم المندثر. وعندما جاء عبير أعشابه يقودنى إلى باب غرفته لم أكن أتخيل أننى سألقاه جالساً فوق سجادته، تمثالاً حياً للماضى الذى سحقته أقدام الزمان، وكأن الجن أعارته أرواحها وأحالت سجادته إلى بساط سحرى يرتفع فوق قوانين الفناء والاندثار. كنت قد تحررت من ذهول اللحظات الأولى قائلاً لنفسى بأنه لا غرابة أن أجد شيخاً عاصرته في طفولتى يمتد به العمر حتى الآن، فما أكثر الذين تتجاوز أعمارهم المائة بعشرات الأعوام. ولكنه جاء يعيدنى إلى حالة الذهول مرة أخرى عندما قال:

- سوف تشفي بإذن ا مما تعانيه، وما أمراض الروح إلا علامة الصدق ونقاء السريرة عندما تخرج للإنسان المريض آثامه وذنوبه وكأنها طيور سوداء. فاتجه بقلبك كله إلى مصدر النور. إلى ذى الجلال والإكرام، منه الشفاء ومن عباده التوسل والدعاء.

كيف تراه عرف عنى كل ذلك؟ لعله أبصر علامات المرض في وجهى وأدرك من خبرته أن الطيور السوداء هى ما يراه مرضى النفوس من أمثالى، أو لعل أخى كان يعرف بوجوده وأخبره عنى وما تلك التمائم التى يزودنى بها إلا

تمائم كتبها هذا الشيخ. كل ذلك جائز. ثم انه رجل صاحب أسرار وكرامات وقدرة على رؤية ومعرفة ما لا يراه ويعرفه الآخرون، فلأستمع جيداً إلى ما يقول.

- هل نبدأ جلسة العلاج الآن ؟

القى سؤاله دون أن ينتظر منى رداً، فقد باشر من فوره قراءة الأدعية والأوراد وإحراق مزيد من البخور. نعم، لنبدأ جلسة العلاج الآن. هربت دائماً من الذهاب مع أخى إلى فقهائه، وها أنا أجد نفسى ودون أن أدرى في حضرة هذا الفقيه الذى نجا من الطوفان. لماذا لا نبدأ الآن ؟. إذا لم أفز بالعلاج فلن أخسر شيئاً. انتقلت إلى الجلوس في مواجهة الشيخ كما أراد. كان يقرأ الأوراد بلهجة منغومة حاولت أن أتبين شيئاً من كلماتها فلم أفلح. بدا لى أنه يستخدم لغة مهجورة لم يعد يتكلمها البشر. امتلأت الغرفة بدخان الأعشاب المحترقة التى لها رائحة فردوس مفقود. أحسست بالبخور يسرى مع الدم في بدنى، وامتلأت عيناى بالدخان فلم أعد أرى شيئاً. سمعت الشيخ يتوقف عن ترتيل اوراده السريانية ويسألنى بصوت كأنه قادم من السقف:

- ماذا ترى الآن ؟

كان السؤال غريباً. حاولت أن أفتح عينى الممتلئتين بالخدر ولم أقل شيئاً. ماذا يمكننى أن أرى غير الشيخ وموقد ناره وجدران غرفته التى يغلفها الدخان.

- أغمض عينيك جيداً وقل لى ماذا تري ؟

بدت المهمة أكثر يسراً طالما أنه لا يريدنى أن أفتح عينى. ولكن ما الذى يمكن أن يراه إنسان مغمض العينين. اننى لا أرى سوى الظلام ولا أحس بشىء سوى هذا الدوار الذى تصيبنى به رائحة البخور.

- ما الذى تراه ؟

- لا أرى شيئاً.

جاء صوته هذه المرة حاسماً، زاجراً:

- أصرف ذهنك عن التفكير في أى شىء آخر.

- اننى لا أفكر في شىء.

إذن أغمض عينيك جيداً وحاول أن ترى. مرت لحظة صمت ثقيلة، صمت لا تكسره إلا هسهسة الأعشاب التى تحترق في الموقد.

- لعلك ترى بقعة بيضاء.

توهمت مجاراة له وهروباً من إلحاحه أننى أرى نقطة بيضاء وسط الظلام فلم أرد بالنفي.

- سوف ترى كيف تصير البقعة البيضاء دائرة تتسع وتتسع حتى لا ترى شيئاً سوى البياض.

لم أكن قد رأيت شيئاً ولكننى بإيحاء منه صرت أتخيل أننى أرى بقعة بيضاء تتسع حتى يصير الظلام فضاء ساطعاً بالبياض.

- نعم إننى أرى ذلك.

- أنظر الآن جيداً في الخلاء الذى أمامك.

كان الخلاء ينطرح أمامى أرضاً قاحلة جرداء لا نهاية لها.

- حدق جيداً كى ترى قباب مدينة تلوح في الأفق.

- إننى لا أرى شيئاً سوى الخلاء.

- انطلق إذن حتى تراها.

رأيت نفسى أعدو وسط بيداء تحرقها الشمس ويغطيها حصى يلمع تحت مسقط الضوء. بقى الشيخ صامتاً، وأنا أركض دون أن أرى شيئاً يحد هذا الخلاء. بدأت أحس بالتعب. جسمى يرشح عرقاً وأنا أعدو مقطوع الأنفاس.

- لقد تعبت.

- لا تتوقف عن المسير.

أواصل المسير لاهثاً. العطش يحرق حلقى، والشمس تمطر حديداً مصهوراً فوق جسمى. أتحرر من سترتى وربطة عنقى وساعة معصمى فقد صار كل شىء ارتديه ثقيلاً لا أقوى على حمله. أخلع القميص وأضعه فوق رأسى لأحتمى به من ضراوة الشمس وأبحث عن طائر ينبثق في الفضاء يحمينى بظله، فلا أرى ظلاً إلا ظلى.

- أريد ماء.

- ستهتدى بعد قليل إلى الماء.

أردت أن أتوقف لأرتاح قليلاً ولكن الصوت جاء يسألنى:

- انظر لكى ترى قباب المدينة وأسوارها.

كنت منهكاً. وكنت أستطيع أن أرى أطياف قباب تلوح في البعيد.

- أظن أننى أراها.

قال هاتفاً:

- أبشر فقد تحقق لمهمتك النجاح.

لا أريد نجاحاً سوى إعفائى من هذه المهمة التى أضنتنى بلا معنى. بدت المدينة بعيدة جداً، والسفر إليها يقتضى جهداً لم أعد قادراً عليه. ولكن أنساماً رطبة جاءت من جهة المدينة أنعشتنى وساعدتنى على مواصلة المسير.

- إنها بعيدة.

- لا تتهاون وأكمل ما بدأت.

- أريد أن أرتاح قليلاً.

تقطع الحذاء وصارت الأحجار تجرح قدمى.

- واصل المسير وستصل قريباً بإذن ا .

بدا فعلاً أننى أقترب منها أو أن أسوار المدينة هى التى تدنو منى حتى صارت أمامى. رأيت على باب المدينة حشداً كبيراً، أطياف بشر تغطيهم أبخرة الشمس وتنعكس أشعتها على حلى يرتدونها. جاء صوت الشيخ الصادق واضحاً، وقريباً، كأنه يهمس في أذنى.

- هل وصلت ؟

قلت لاهثاً

- إننى أقترب.

- هل ترى أهل المدينة الذين يقفون عند الباب ؟

- نعم

- اتجه إليهم وبادرهم بالسلام فهم ينتظرون مجيئك.

منهكاً، متعباً، أجر جسدى فوق الأرض، تحاملت على نفسى حتى وصلت إليهم. ألقيت عليهم التحية وارتميت تحت أقدامهم فاقد الأنفاس. جاءوا لإسعافي يرشوننى بالماء ويضعون قطرات منه في حلقى. بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد قدرتى على التنفس بانتظام. أختفي صوت الشيخ الصادق ولم أعد أسمع إلا أصوات هؤلاء الناس الذين يصنعون دائرة حولى. ما زالوا أشباحاً لا أستطيع أن أميز ملامحهم لفرط ما عانيت من تعب. كلامهم ما زال غامضاً مضغوماً لا أعى منه شيئاً. أدركنى خوف مفاجئ وأنا أنتبه إلى أننى أرتمى وحيداً بين هؤلاء الأشباح. استنجدت بالشيخ الصادق لكى ينقذنى فلم يسمعنى. ناديته بصوت مرتفع عندما استعدت قدرتى على النطق. لم يأتنى الرد، فعاودت النداء بحرقة وفزع. أريد أن تنتهى هذه اللعبة المضجرة وأن أترك هذا الوجود الكاذب وأعود إلى وجودى الحقيقى. ولكن الشيخ لا يجيب. اختفي وكأنه لم يكن منذ لحظة معى، كما اختفي وجودى الآخر الحقيقى وصرت الآن جزءاً من هذا العالم

الوهمى. تركنى في الوهم ومضى. وبعينين أضناهما ضوء الشمس وفكر أعياه القيظ والعطش والسير الطويل في الصحراء، تأملت الرجال الذين يحيطون بى. استطيع الآن أن أراهم بوضوح فلا يذكرنى منظرهم إلا بالبشر الذين يسكنون عوالم ألف ليلة وليلة. يرتدون عمائمهم وأرديتهم وسراويلهم الواسعة ويتمنطقون بأحزمة مرصعة بالجواهر ويضعون بها خناجر لها مقابض من العاج وأغمدة مزينة بنفيس المعادن وكأنهم هيئوا أنفسهم لمشهد احتفالى. كيف وصلت إلى هذه المدينة التى تخلفت عن عصرها، أو كيف خرجت أنا من العصر عائداً إليها، اننى لا أفهم شيئاً ولا أجد تفسيراً لهذا كله إلا أننى أرى حلماً. أغمضت عينى أطرد الحلم وأعدت فتحهما لأراه قد اختفي. ولكن الحلم لا يختفي وإنما يزداد تأكيداً وحضوراً، فقد اقتربوا منى عندما رأونى أنهض من رقادى وأستعيد مدراكى قائلين:

- نصر ا الأمير.

صاروا جميعاً يرددون هذا الهتاف بفرح وحماس لم أعرف عن أى أمير يتحدثون، فلعلهم رأوا أميرهم قادماً لتدشين هذا الحفل، ولكنهم لا يلتفتون لأحد غيرى. لا بد أن

الأمر اختلط عليهم وظنوا أننى أمير من أمرائهم كان تائهاً في الصحراء وعاد إليهم بعد سنوات من الغياب تبدلت خلالها صورته، رأونى ذاهلاً، أنظر ببلاهة نحوهم غير قادر على استيعاب ما يقولون، فتقدم أحدهم منى، وكان شيخاً ذا لحية كبيرة مصبوغة بالحناء، يرتدى عمامة زرقاء وجبة من الحرير الأبيض يحيطها نطاق مرصع بالمرجان، وأخبرنى بأنه تم تنصيبى منذ هذه اللحظة أميراً على هذه المدينة وحاكماً على رقاب أهلها. قائلاً بأن أعراف المدينة تقضى بأنه إذا مات الأمير خرج الناس إلى البوابة المفضية إلى الصحراء ينتظرون أول رجل يأتى من هذا الطريق ليجعلوه أميراً عليهم. كنت أعرف أن هذا لا يحدث إلا في الحكاية التى تسردها شهرزاد، فكيف استطعت وفي غفلة من حراس الزمان الذين يديرون الأفلاك بميقات ونظام، أن أنتقل من خارج الحكاية إلى داخلها. كنت أريد أن أعبر لهذا الشيخ عن دهشتى لهذا التطابق المستحيل بين زمن الأسطورة والزمن الذى أنتمى إليه، ولكنه دون أن يطلب رأياً أو ينتظر منى رفضاً أو قبولاً أمر بالمحفة التى نضدت فوقها الوسائد والطنافس والرياش فوضعت أمامى، وجالساً فوق المحفة

المحمولة على الأعناق عبروا بى البوابة المفضية إلى شوراع المدينة وقد زينتها الأقواس والرسوم وأكاليل الورد، ومن حولى أطفال في ثياب مزخرفة يحملون سلالاً مليئة بأوراق الزهور والورود ينثرونها فوقى، وقد ازدحمت الطرقات بنساء ورجال يرقصون ويغنون ويعزفون الموسيقى، ويطلقون الهتافات وصيحات الابتهاج. أدخلونى إلى قصر تحف به الحدائق وأحواض الماء، وأنزلونى من المحفة وقادونى عبر ردهات القصر ذات السقوف العالية وأعمدة الرخام الكثيرة والأبسطة التى تغوص بها الأقدام، إلى غرفة حمام الأمير حيث قضيت وقتاً بين الأبخرة ومياه الأحواض الساخنة الممزوجة بالمسك والعنبر والمخلوطة بأوراق النرجس والياسمين. تعاونت خمس وصيفات على إلباسى حلة الحكم. قفطان من الحرير وفوقه عباءة مطرزة بخيوط الذهب والفضة ونطاق مرصع باللؤلؤ والياقوت الأحمر وعمامة من قماش مصبوغ بغبار الذهب وسراويل مشغولة بنقوش تتفق مع نقوش العباءة ومركوب مزين بفصوص المرجان، وأنا أستسلم لهن دون كلام، مبهوراً بما أرى، تملأنى الدهشة وتشل قدرتى على النطق، متيقناً بأننى

أعبر الآن فضاء الحلم وأنتظر في أية لحظة أن أخرج منه لأسقط في غرفة الشيخ الصادق أبو الخيرات. قادونى بعد أن رشونى بالعطور ودلكوا ملابسى بقوالب المسك إلى الديوان. قاعة كبيرة بالغة الاتساع والبهاء تتدلى منها ثريات كبيرة مثقلة بقناديل الفضة، تزين سقوفها النقوش والتصاوير وتغطى جدرانها المرايا وأغلفة من خشب الأبنوس، تفنن الرسامون في نقشها وأبدعوا في تصوير الرجال الذين يحملون الرماح والسهام يصطادون بها الوعول والنمور وبقر الوحش. أجلسونى فوق سدة الحكم التى يغطيها الديباج والوسائد ومن حولها صفت الأرائك التى يجلس عليها عدد من شيوخ المدينة وعائلاتهم. وقفوا عندما دخلت ونفخ المنشدون الذين يصطفون أمام باب القاعة في أبواقهم عدة مرات. جلست ذاهلاً لا أدرى ماذا يجب أن أفعل وماذا يمكن أن أقول إذا بدءوا في توجيه الأسئلة إلى عن الرحلة التى قطعتها والبلاد التى جئت منها. بدأت مراسيم تنصيبى أميراً، وجاء رجل بمجمرة يضوع منها عبير يشبه العبير الذى قادنى إلى غرفة الشيخ صادق، وصار يطوف بها حولى ويقرأ الأدعية والأوراد. جاء بعده رجل يحمل إبريقاً مليئاً

بالزخارف والنمنمات، بدأ يرشنى بمائه طالباً من هذا الماء المقدس الذى شرب ضوء القمر لمدة سبعين دورة أن يباركنى، وجاء رجل ثالث يحمل طبقاً مفروشاً بالقطيفة الحمراء وفوقه جوهرة كبيرة مرصعة بفصوص الأحجار الكريمة لكى يرشقها في عمامتى. ثم وقف الشيخ ذو اللحية الحمراء الذى عرفت أن اسمه جلال الدين وسألنى أن أردد معه هذا القسم:

- أقسم با وشموسه وأقماره ونجومه وأرضه وسمائه وما حوت من كائنات أن أكون خادماً مخلصاً لمدينة عقد المرجان، وفياً لتقاليدها، وحارساً لنظامها، وأميناً على تراثها، وعاملاً على رفعتها، وإسعاد أهلها، وحامياً لترابها، وا على ما أقول شهيد. رددت معه القسم واقفاً. صفق الحاضرون وهتف المنشدون ثلاث مرات:

- نصر ا الأمير.

انتهت مراسم التنصيب فبقى الرجل واقفاً لإلقاء خطاب باسم أهل المدينة. قال كلاماً غامضاً عن الشمس التى تشرب الماء والماء الذى يشرب الضوء والهواء ويتحول إلى رحيق يسرى في عروق الأرض ومورد حياة للبشر والشجر

والكائنات الأخرى. وعن جوهر الماء وجذور الضوء وأمشاج الأرض وأمواج الهواء التى منها جبل الإنسان. تحدث عن بساتين السماء التى منها جئنا وفيها خلقنا وإليها نعود مرة أخرى، وعن خيط النور الذى بين السماء والأرض وبين الإنسان وموطنه الأصلى بين النجوم، وعن معنى سطوع القمر في قلب الليل وما يمارسه من تأثير على عقول وقلوب الكائنات البشرية فإلى هذا المعنى يجب أن تتجه الأنظار. ويسألنى إذا ما وعيت كلماته أن أمعن النظر في جوهر الإنسان الذى تزود بخبرة أجيال لا حصر لها سبقته إلى هذا العالم واستفاد من قدرته على تأمل النظام الذى يحكم الكون، واغترف الحكمة من الطير الذى يعرف منابع النور وحكمة الشجر الذى يعرف أسرار الفصول، وحكمة الأعشاب والينابيع والسحب والنجوم التى تصنع زهو الطبيعة وتمنح عطاءها للإنسان، فقد احتوى الجوهر الإنسانى معنى الوجود وأسرار الطبيعة ونور ا وأمجاد الأرض والسماء، فإلى استكمال الجمال الداخلى يجب أن يسعى المرء لكى يكون جديراً بهذا الانتماء. ثم توجه بالحمد والشكر إلى الأقدار العليا التى هدتنى إلى مدينة عقد المرجان، بعد رحلة مضنية

شاقة وسط الصحراء، لأكون منذ اليوم الأمير الذى أقسم أن يحافظ على تراثها، ويرعى النواميس التى تحكمها، ويكمل المسيرة التى بدأها امراء قبله، جاءوا من ذات الطريق، وتعرضوا إلى نفس الامتحان، وقطعوا تلك المفازة الصحراوية الموحشة التى لا يقطعها إلا الأولياء من أحباب ا ، فهى مفازة تسكنها جوارح الطير وتمتلئ بأودية الجن والعفاريت ومن نجا من الهلاك في أوديتها وأرضها ذات الشقوق والأخاديد وقاوم جوارح الطير التى تأكل الإنسان والحيوان لن ينجو من ثعابين تنفث ناراً، تسكن إحدى مناطقها، تقطع الطريق على العابرين بها. فلا يعبرها بعد كل هذه المهالك والأخطار إلا رجل من أصحاب الحظوة والكرامات. ولقد كافأ ا صبرهم خيراً عندما انتظروا عاماً كاملاً يخرجون فيه كل يوم إلى باب المدينة للقاء هذا الرجل الصالح الذى استطاع بمعجزة النور والإيمان أن يخترق هذا الطريق ليصبح أميراً جديراً بائتمانه على هذه المدينة.

تابعت كلماته بذهول واستغراب لأنى قطعت الطريق غافلاً عن كل هذه المهالك. حاولت وأنا أستمع إليه أن أتبين الدين الذى يدينون به وتوسمت من ذكرهم لاسم ا أن ما

يعتقدونه قريب الصلة بالإسلام. ثم دعا الشيخ رجلاً فتياً حاسر الرأس تتدلى جدائل شعره الطويل حول عنقه هو ياقوت الشاعر، الذى نهض من مكانه وجاء يحمل نايأ. عزف عزفاً جميلاً، شجياً، أشاع في نفسى شيئاً من الهدوء والسكينة وجعلنى أحس بالالفة مع المكان. ترك بعد ذلك العزف وانشد بعض التراتيل التى كان يقولها بأسلوب بين الإلقاء والغناء. غنى عن دورة الأفلاك في الكون ودورة النسغ في الشجر ودورة الفصول على مدار العام ودورة الإنسان بين الميلاد والموت، فلا خلاص إلا بالحب ولا حب يعادل حبه لتلك المرأة التى أوقعته في شباكها وسحرته بجمال عينيها فلم يعد يرى صورة إلا صورتها ولا يرى وجهاً إلا وجهها ولا يعرف نوراً يهتدى به في رحلة العمر إلا النور القادم من ثغرها وجبينها.

وما أن أكمل غناءه حتى أضاء القاعة جمال امرأة وقفت عند مدخلها تحف بها الوصيفات، وضعت في عنقها عقداً به سبعة أقمار مصنوعة من الزمرد والياقوت، وفي أذنيها قرطين من اللآلئ التى تشبه الوان العقد، وأرسلت شعرها الأسود الطويل فوق كتفيها، مختلطاً بسواد الثوب

المرشوش بغبار فضى فوسفورى. وقف الجميع تحية لها ووقفت معهم أعلق بصرى بها حتى اقتربت منى. ليس هذا الجمال غريباً عنى. لقد رأيته قبل اليوم وعشت معه إلى حد الالفة والحميمية. وما هذه المرأة إلا شهرزاد كما عرفتها ورأيت صورتها معكوسة في مرايا الحلم والمخيلة. بقامتها الفارعة المجيدة ووجهها المستدير المضىء، وسواد عينيها اللتين تنفثان سحرهما الأسطورى الذى روض الوحش. وبرغم ما قاله الشيخ جلال الدين عندما قدمها لى، من أنها الأميرة نرجس القلوب ابنة أمير البلاد الراحل، التى تولت مهام والدها في فترة الانتظار والخروج اليومى إلى بوابة الصحراء والتى ستتولى مساعدتى في فهم العمل بالديوان الأميرى، فأننى لم أزدد إلا يقيناً بأنها شهرزاد تستخدم اسماً مستعاراً وتأتى لتكون دليلى في هذه الرحلة كما كانت دليلى في أزمنة مضت. سمعت ترحيباً منها وتلقيت نظرة مشعة من عينيها فأحسست بالفرح رحيقاً مثملاً يسرى في جسمى. وجاءت بهجة حضورها وهى تجلس بجوارى لتذيب كل احساس بالغربة كان يساورنى. ليكن ما أراه حلماً أو خيالاً فأننى لا أريد الآن شيئاً سوى أن أقضى العمر عائشاً في

الحلم. تأملت الجالسين في القاعة فرأيتهم جميعاً ينظرون نحوى وينتظرون أن أقول شيئاً بعد أن انتهت مراسم تنصيبى. أغمضت عينى ورفعت رأسى إلى السقف أخاطب في سرى الشيخ الصادق أبو الخيرات طالباً أن ينجدنى ببعض الكلمات. فتحت عينى فوجدت رسوماً في السقف لنساء ورجال يحملون طاووساً ويضعون فوق وجوههم الأقنعة، قررت أنا أيضاً أن أرتدى القناع وأندمج في اللعبة، مستحضراً ما قرأته في ألف ليلة وليلة عن مثل هذه المواقف. ليس الوقت وقت كشف عن هويتى الحقيقية وسرد للوقائع التى مرت بى والتى لم يكن من بينها مقابلة غيلان الصحراء والثعابين التى تنفث النار فهذا حديث لن يقبله الناس منى الآن. تذكرت أن أول ما يفعله الأمير بعد تنصيبه هو إصدار عفو عن المساجين. مبادرة خير يبدأ بها صفحة جديدة مع الناس. وبكلمات مقتضبة شكرت الحاضرين على حسن حفاوتهم وعبرت لهم عن اعتزازى بالثقة التى منحوها لى عندما جعلونى أميراً على مدينتهم دون معرفة سابقة بمن أكون، وأصدرت أولى قراراتى الأميرية قائلاً:

- ليطلق سراح كل من في الحبوس ابتهاجاً بهذا اليوم الذى نريده أن يكون فاتحة عهد من المودة والصفاء بين الناس.

رأيتهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً كأن ما قلته كلاماً غريباً ليس من حقى أن أقوله. مرت دقيقة صمت ثقيلة استنجدت بعدها بالأميرة لأعرف سر هذا الوجوم، فأخبرتنى بكلمات هامسة أن ليس في مدينة عقد المرجان سجون ومسجونون. أدهشنى أمر هذه المدينة العجيبة التى قادنى إليها الشيخ الصادق دون أن يزودنى بارشاداته عن نظامها الذى لا يشبه الحكم في البلاد الأخرى، وقلت في خاطرى لعلهم يقتلون المجرمين أو يقطعون أيديهم فلم تعد هناك حاجة إلى سجن أو سجناء تنفق عليهم الدولة، أو لعل أميرهم السابق لم يكن يعرف غير السحل عقوبة لأعدائه ومعارضيه، سأتدبر في المستقبل أمر هذه التقاليد وسأبدأ عهدى بعمل جليل هو بناء السجون. ولكن ماذا أستطيع أن أقول لهم الآن ؟، استعنت مرة أخرى بما أذكر من حديث ألف ليلة وليلة وقلت بصوت حماسى:

- إذن فلتبطل المكوس لمدة عام كامل.

جازفت بتقديم هذه المكرمة التى قد تفقر خزائن بيت المال فتعجز الدولة عن دفع أجور العاملين بها، وقلت ما قلته رغبة في تجاوز الحرج وانقاذ ماء الوجه، ولكن ماء الوجه ظل مراقاً، لأننى وجدت القوم مرة أخرى ينظرون بذات الدهشة إلى بعضهم بعضاً. لا يعقل أن تكون هذه البلاد خالية من أنظمة المكوس وما يوازيها من ضرائب وجبايات، فهى من الأركان التى تقام عليها الدول منذ أن انتهى طور الحياة البدائية، ولكن الصوت الناعم جاء ليقول بذات اللهجة اللذيذة الهامسة التى يلونها الحرج، أن المكوس نظام تركته هذه المدينة منذ أحقاب طويلة مضت. وكيف إذن تنفق الدولة على أجهزتها وكيف ينفق الأمير على حفلاته ونسائه ورجال قصره وأركان حكمه وأفراد وضباط جيشه وشرطته. لعلهم سبقوا الفكر الاشتراكى العلمانى إلى اكتشاف ملكية الدولة لوسائل الانتاج، فصار جميع الناس يخدمون لصالح الدولة، وانتهى بذلك دفع الضرائب والمكوس. وطالما أن جميع الناس يعملون أجراء للدولة فلأصرف لهم معاشاً اضافياً احتفالاً بهذا اليوم.

- ليصرف معاش شهر إضافي لكل العاملين في الدولة.

الصمت مرة أخرى ونظرات الاستغراب، ألا يتقاضى الناس أجوراً مقابل ما يقدمونه من أعمال للدولة. وإذا كنت أفهم ألا تكون هناك سجون أطلق سراح سجنائها لأنهم يرمون بهم من فوق الأسوار حتى تدق أعناقهم، وأفهم ألا تكون هناك مكوس لأن جميع الناس صاروا أجراء لدى السلطة فأنني لا أفهم كيف لا تكون هناك معاشات للعاملين وجرايات للضباط ورجال القصر حتى إذا كان العمل يقوم على نظام السخرة فهو نظام يطبق على العبيد وليس على أهل الحكم والدولة. لم يكن هناك وقت لأن أسأل عن تفسير لهذه الاحاجى. أن الدولة هنا لا تعرف نظام المهايا والمرتبات وهذا كل شىء. لن يمضى هذا اليوم دون أن أصدر قراراً يؤكد مكانتى بينهم ويشيع الفرح بين بسطاء الناس الذين استقبلونى بالرقص والغناء، حتى لو كانوا بشراً وهميين يسكنون مدينة وهمية لا وجود لها الا في ذاكرة الشيخ الصادق. فلأمنح إذن هؤلاء الناس راحة من أعمالهم لمدة أسبوعين فلا كدح ولا عمل ولا شقاء ابتهاجاً بالعهد

الجديد، ولكن الأميرة تخبرنى أن الناس هنا لا يعملون إلا وفق إرادتهم الحرة، فلا أحد يعمل لحساب أحد ولا يمتثل لأوامر أو رغبات أحد إلا نفسه. لا معنى لهذا كله، قلت لنفسى، إلا أنهم يعيشون بطالة دائمة، وطالما أن الأمر كذلك فلينصرف تفكيرى إلى الذين يطحنهم الفقر من هؤلاء العاطلين، ولتمنح الهبات والإعانات لكل البؤساء والمحتاجين. ومرة خامسة أو سادسة تميل نحوى نرجس القلوب لتفهمنى أننى أظلم هذه المدينة عندما أتحدث عن البؤساء لأن جميع أهل البلاد يتساوون في الانتفاع بموارد أرضهم. صرت استشير الأميرة قبل أن أجازف بنقل مكارمى إلى الحاضرين فلا شك أن الحديث عن البؤس كان سيستفزهم أكثر مما استفزهم حديثى عن الحبوس والمكوس. سألتها مرة أخرى عن رأيها في أن تفتح خزائن بيت المال وتوزع الجرايات من أموال الدولة على كل الناس، ولكن مدينة عقد المرجان كما أخبرتنى الأميرة لا تعرف مالاً ولا يتعامل أهلها بالعملات والليرات الذهبية والفضية كما يفعل أهل البلاد الأخرى. قلت في خاطرى لعلها مدينة مسحورة لا يعرف أهلها احتياجاً ولا يتناولون طعاماً ولا شراباً سوى الهواء.

أليست هى مجرد وهم وخيال تصورته واقعاً وعاملته على هذا الأساس. كنت لا أزال غارقاً في حيرتى وحرجى أبحث عن مكرمة تؤسس لى مكانة بينهم وتتفق مع أطوار مدينتهم، عندما حان موعد الانتقال إلى قاعة السهر والطعام لينقذنى من هذا المأزق. انتقلنا إلى قاعة مدت بها أسمطة الأكل والشراب، وجاءت الخراف المشوية والمحشية باللوز والفستق والبندق والبرغل. كنت جائعاً فأكلت بشراهة، وكنت ظامئاً فشربت من دنان النبيذ بأكثر مما شرب الآخرون، رغبة في أن أتجاوز هذا الحرج الذى أحس به وأنا أعاشر قوماً لم أعرفهم إلا منذ لحظات. انتهى الطعام وحان موعد الغناء والموسيقى وحلقات الرقص. اصطف المنشدون وضاربو الدفوف وعازفو المزامير والنايات وآلات العود والبزق استعداداً لبدء الاحتفال. وجاء الحكيم جلال الدين يخبرنى بأن تقاليدهم تحبذ أن يتزوج الرجل الغريب الذى ينصبونه أميراً، إحدى نساء مدينتهم كجزء من تأكيد انتمائه إليهم. لم أسأله إن كان هذا شرطاً من شروط الإمارة أو من الضرورى أن يتم هذه الليلة لأنه ترك لى الخيار قائلاً أنهم يعتقدون ببركة هذا اليوم، وسيكون شيئاً مفرحاً لأهل المدينة

أن يتفق الزفاف مع يوم التنصيب، ويمنحنى حق اختيار هذه الزوجة من بين النساء اللاتى يرغبن في الزواج ممن جئن لحضور هذه الحفلة. رآنى شارد الذهن، صامتاً، فظن أننى متردد في قبول هذا العرض. كنت أحاول أن أستوعب فكرة أننى صرت جزءاً من هذا العالم الذى بدأ يعيد ترتيب حياتى بما يتفق مع نواميسه وغاياته. أبلغته أننى لا أحمل إلا التقدير والإجلال للمدينة وتقاليدها وسأكون سعيد الحظ إذا أتيح لى الاقتران بإحدى نسائها. قلت هذا الكلام وأنا أنظر باتجاه نرجس القلوب التى صارت عونى ومرشدى في مهماتى الأميرية، فرأيته يبتسم مؤيداً اختيارى معبراً عن سعادته بأن تكتمل هذه الصلة التى بيننا بالزواج. فتمنيت عليه أن يسألها قبل أن يسألنى فهى الأحق بإبداء الرفض والقبول. قائلاً في سرى وأنا أسلم نفسى لحياة جديدة وسط خيمة الحلم، من أين لرجل مثلى جاء إلى هذه المدينة منذ ساعات، عارياً، جائعاً، حافياً، مقطوع الصلة بأهله وعصره أن يرفض مثل هذا العرض السخى ؟. انه حلم يتحقق داخل الحلم. كانت أبخرة النبيذ قد شعشعت في رأسى مرسلة بروقها الموحية. صرت الآن قادراً على الاندماج في هذه الأجواء الأسطورية

مستمتعاً برفقة هؤلاء البشر المصنوعين من وهم، معتبراً نفسى واحداً منهم.

وضع الرجل يدى في يد نرجس القلوب ومضى يقرأ الأدعية والأذكار وأنا أنظر مفتوناً إلى عينيها، مدركاً أنها شهرزاد الأسطورة كما عرفتها وعاشرتها ورسمت منذ الطفولة صورتها. هكذا تمنيت دائماً أن التقى بها وهكذا شاءت حكمة الشيخ الصادق أن تصل بالعلاقة التى بيننا إلى حدودها القصوى، وإلى هذا العرس الذى تقيمه لنا مدينة هربت من خرائط العالم ودورة الزمن كى تأتى إلى نجدتى. انتهى الحكيم جلال الدين من مراسيم عقد القرآن، فرفعت الأقداح لتحيتنا، وضج المكان بصوت الموسيقى ترافق سهرتنا. وأخذ الرجال نساءهم إلى حلبة الرقص، فأخذت أنا أيضاً الأميرة إلى هناك، احتوى خصرها، وأدفن وجهى في غدائر شعرها، أغيب لحظة منتشياً بعطرها وعبير أنوثتها، ثم أرفع رأسى فيفاجئنى ما أرى وكأننى نسيت ما حدث لى، وأسأل نفسى حائراً كيف يمكن أن تكون الحقائق المحسوسة والملموسة حلماً، ويكون هذا الانفعال المتوهج الذى يطربنى ويتدفق ساخناً تحت جلدى وهماً، حتى بعد أن انتهى الحفل

ووجدت نفسى في غرفة نوم مبهجة، ثرية بأبسطتها وديباجها وقناديلها الذهبية وتصاوير البشر المجنحين الذين يزينون سقوفها وجدرانها، وحيداً مع الأميرة التى صارت زوجتى، كنت ما زلت أسأل نفسى ذات السؤال، واثقاً من أن ما أعيشه الآن أكثر عمقاً وصدقاً ومتعة من أى شىء آخر عرفته قبل الانتقال إلى هذه المدينة. وسواء كان وجودى الآن حقيقة أم وهماً، حلماً أم يقظة، فاننى لا أريد شيئاً أو أتمنى شيئاً إلا أن أبقى بجوار هذه المرأة التى تتألق بوجه له التماع الذهب المصهور وتوهجه. جلست على الأريكة بجوارها وأمامنا كوزان مصنوعان من الذهب الأحمر المرصع بالدر والجوهر، يحتويان نبيذاً لذيذ المذاق له رائحة المسك. صارحتها بأننى ما زلت عاجزاً عن تصديق ما أرى وأسمع، فقالت ضاحكة بأن ما أراه ليس إلا حلماً وما هى إلا المرأة الطيف التى تزور الرجال في أحلامهم، كدت أصدق ما تقول ولم أكتشف أنها تسخر من أفكارى إلا عندما وضعت كفها في كفي قائلة:

- ألا ترى أننى مصنوعة من الهواء.

قبلت يدها المباركة ذات النعومة والصفاء ولم أقل شيئاً.

- لن تقول هذا الكلام عندما تنام الليلة وتستيقظ غداً وأنت ما زلت في هذا القصر، أميراً يبجله الناس جميعاً.

قلت شارد الذهن، عاجزاً عن تصديق ما قالته:

- سأستيقظ عندما أستيقظ في دارى بالمدينة التى جئت منها مواطناً بسيطاً يخاف أن يرمى نواة فوق الأرض.

- الناس لا يتكلمون في الأحلام عن أحلامهم ولا يحددون موعداً لدخولهم إليها أو خروجهم منها.

أردت أن أخبرها بما حدث لى قبل أن أصل مدينتهم وقصة انتقالى إليهم من زمان غير زمانهم لكى تعرف سبب حيرتى وعجزى عن التصديق، ولكنها أوقفتنى بسرعة عن الاستمرار في الكلام، قائلة بأن طقوسهم تقضى بألا يسألوا الرجل الذى سلك طريق الصحراء إليهم، من أين جاء وما هو أصله، فقيراً كان أو غنياً، عالماً أو جاهلاً، ينتمى إلى سلالة الملوك أو السلالات الأخرى. يكفي أنه استطاع أن يجتاز ذلك الطريق وينجو من كل تلك المهالك ومعنى هذا أنه صاحب أسرار وكرامات، ساقته أقدار عليا إلى باب مدينتهم،

فارتضوا به أميراً عليهم لا ينتمى لأحد إلا لهم ولا يعرف مدينة إلا مدينتهم. وفهمت منها أنه صار على الآن أن أنسى كل شىء عن نفسى، أنسى اسمى ومدينتى وأهلى، وأرضى بالأسماء التى يطلقونها على أميرهم فهو سيد القصر وسالك الدرب أمير عقد المرجان.

كانت يدها ما تزال في يدى وكانت النشوة رحيقاً سحرياً يسرى في بدنى. سأنسى ذلك العالم الذى أورثنى أمراض الروح، سأنسى مكعباته الاسمنتية وهواءه المحروق وضجيج حديده وآلاته وفحيح إذاعاته التى تبشر كل يوم بالكوارث والخراب، سأنسى رماده المذرور فوق الوجوه وأمنح نفسى إلى أفراح هذا العالم الذى تتفتح مباهجه كأزهار الربيع تحت خطاى. سأجعل اتصالى به اتصالاً حقيقياً وعميقاً، لا باعتباره حلماً بل باعتباره بديلاً رائعاً لذلك العالم القديم الذى تقوض وانتهى حتى صار دخاناً من الذكريات، وأعيشه كواقع أصيل ينبض بجلال الحياة وبهائها كما ينبض جسد هذه الأنثى فاتناً تحت مئزرها الحريرى. لا بد أن الأهل هناك سينشغلون لغيابى وسيذهبون إلى مراكز الشرطة بحثاً عنى ولعلهم يذهبون غداً أو بعد غد يفتشون عن ملامحى بين

مجهولى الهوية من ضحايا حوادث الطرقات. ولعل الشيخ الصادق يكون كر يماً معهم فيرسل إليهم من يخبرهم بأنه رآنى انتمى إلى هذه العوالم السحرية التى عشقت أهلها وكتبت عن أحداثها وتواريخها بأكثر مما أنتمى إلى ذلك العصر، فحررنى من سطوة الزمان والمكان وأحالنى سهماً مشدوداً إلى وتر وقوس، ثم أطلقنى لاخترق مسيرة مئات الأعوام واجتاز كهوف الجن وثعابين النار وأوكار الطيور الجارحة، خارجاً من زمن الغربة والمنفي عائداً إلى أهلى الحقيقيين وزمنى الحقيقى ومدينتى الحقيقية. ها هى مدينتى الجديدة تبسط لى أرضها وجناحها، تلبسنى من لباسها وتسقينى من شرابها وتطعمنى من صحافها وتدخلنى في طقوسها، تضع جوهرة الحكم فوق رأسى وتقدم أجمل أميراتها لمؤانستى. أخذت امرأتى إلى السرير أنضو عنها مئزرها فيتجلى بهاء الجسد كبستان الهى مثقل بفواكه الجنة. أتجول بين جداولها وأشجارها وأقطف من ثمارها وأشرب من خمر رضابها وانتشى بموسيقى الفجر تعزفها طيور الفرح التى تسكن جسمها. أجدها مهرة لم تركب ودرة لم تثقب فأستمتع ببكارة الجسد الأميرى وأنام بعد ذلك نوماً خالياً

من الكوابيس التى كانت تعذبنى بزياراتها الليلية، كأننى أغفو فوق بساط الريح المصنوع من أجنحة الملائكة. وأصحو في الصباح على صوت الشحارير والحساسين وعصافير الكنارى، تشدو فوق العرايش التى تتسلق شرفة دارى، وأفتح عينى لأرى السقف الذى تزينه صور الكائنات المجنحة ما زال فوق رأسى، ونرجس القلوب ممددة كشعاع النور بجوارى، فألوم نفسى لأننى أسمى هذه الحالة التى انتقلت إليها حلماً، وها قد مضى الليل وجاء النهار، ودخلت في النوم وخرجت منه، دون أن يتلاشى الحلم أو يتبدد. أيقنت بأن ما أعيشه الان ليس إلا حياة جديدة مباركة تتيحها لى أسرار رجل عارف با . بقيت جالساً في سريرى، أتأمل المرأة التى تعرى زندها وتسلل من نافذة الشرفة أول شعاع لشمس الصباح وانسكب فوق وجهها، فبدا مبهجاً بريئاً يوقظ في ذهنى ذكرى لوحة رأيتها ذات سفر، لأميرة أسطورية من أميرات الجمال، نائمة في خدرها وقد تفنن الرسام في تصوير النور الذى يلثم وجهها. غير مصدق أننى حاورت البارحة هذا الجسد واستمتعت بكشف أسراره والاغتراف من بهائه. مددت يدى أتلمس البشرة التى لها نعومة أوراق الورد

وكأننى أتعرف عليها لأول مرة، سرت دفقة من رحيق اللذة في جسمى حتى ارتعشت أطراف أصابعى نشوة وطرباً، ومأخوذاً بانسياب جسمها صرت أنصت إلى النفس الذى يتردد وأراقب الصدر الذى يرتفع وينخفض وكأننى في حضرة كائن سماوى مقدس.

كنت مشتاقاً إلى التعرف على معالم هذه المدينة التى صرت أميراً عليها وحاكماً على رقاب أهلها قبل أن أراها وأعرفها. أخذتنى نرجس القلوب، بعد الإفطار، في جولة عبر حدائق القصر وبساتينه. أرتنى جنائن الورد التى يصنعون منها سوراً للقصر ويجعلونها بديلاً للسياجات والجدران وأسياخ الحديد. تجولنا عبر أشجار التفاح والبرتقال والنارينج التى كانت مثقلة بثمارها في حين كانت أشجار اللوز والبرقوق والمشمش والكمثرى والخوخ والتين قد برعمت وفاح عبيرها مختلطاً بشذى الورد والفل والياسمين والنسرين والنرجس والبنفسج والزنابق. كانت الأحواض المليئة بالماء، والجداول التى تتسال بين الأشجار عامرة بأسراب البط والاوز والبجع. شاهدنا طيور الدورى والحساسين والكنارى والببغاوات ذات الألوان الزاهية وهى تأوى إلى أعشاشها أو

تدرج فوق أعشاب الحديقة دون أن يفزعها اقترابنا منها. وقفت بجوار طيور الطاووس أراقبها وهى تبدى فرحتها بمجيء الأميرة، تقترب منها وتفرش ريشها المتعدد الألوان فيضيف بهاء إلى بهاء الماء والأعشاب والأشجار والزهور. كما تبادلت التحية مع العمال الذين يشتغلون وسط الحقول والمشاتل والمناطق المخصصة لزرع الخضروات والبقول. وعدت بصحبة نرجس القلوب إلى داخل القصر لأتعرف على محتوياته وأطوف بين ردهاته وقاعاته، أرتنى باب غرفة ظلت مقفلة منذ أن تم بناء القصر. أقفلوها ورموا بالمفاتيح إلى قاع البحيرة التى تقع خارج أسوار المدينة بحيث لا يفكر أحد في فتحها. غرفة اقتضت حكمة الأسلاف أن تبقى مقفلة مدى الدهر. وقفت أمامها طويلاً أتأمل النقوش فوق الباب الخشبى وقد بدت في شكل نيازك ونجوم هاربة من ابراجها، ولم أفهم من أحرفها المتداخلة سوى العبارة التى تحرم الدخول إليها. سألت نرجس القلوب عما يمكن أن يكون السبب الذى من أجله بنيت هذه الغرفة المغلقة على أسرارها، فأخبرتنى بأن أحداً لا يعرف على وجه اليقين ما هو هذا السبب، إلا أن هناك أساطير كثيرة تتواتر عن هذه الغرفة،

من بينها أن أحد الرجال الصالحين جمع كل الأفاعى والعقارب والحشرات السامة التى كانت تفتك بأهل المدينة وسجنها خاف هذا الباب، ورواية أخرى تقول بأن أحد امراء المدينة ممن لهم سيطرة على الجان والعفاريت جمع كل الأرواح الشريرة في هذه الغرفة وختم عليها. ورواية ثالثة تنفي ذلك كله وتقول بأن للغرفة معنى رمزياً يهدف إلى اختبار قدرة أهل البلاد على مقاومة الفضول الذى يجاب الكوارث فإذا فتحوها كان معنى ذلك أنهم يفتحون على أنفسهم باباً للشر والهلاك، ومهما كان الدافع وراء بنائها فقد احترم الناس جيلاً وراء جيل حكمة الأسلاف الذين أمروا بأن تبقى مغلقة على الدوام. تركت الغرفة السرية بطلاسمها وأساطيرها، وانتقلت مع الأميرة لمعاينة ما احتواه القصر من تحف وتماثيل وتصاوير على الجدران والسقوف لطيور الطاووس التى عرفت أنها كانت شعاراً قديماً لحكام المدينة، ورسوم أخرى لفرسان ومشاهد طبيعية لأرض خضراء تفرشها الزهور وتسكنها الوعول والغزلان. وتفقدنا الغرفة التى وضعت بها مناضد مغطاة بمفارش من القطيفة الخضراء، وفوقها صفت الهدايا التى جاء بها الينا أهل

المدينة بمناسبة الزفاف، تحف وحلى ومزهريات وقلائد وحقق طيب وقوارير عطر وسجاد مطرز بالنقوش. وجدنا امرأة مسنة جاءت متأخرة تحمل هديتها، فشكرناها واستضفناها على مشروب من مخلوط الفاكهة. كانت الهدية شالاً لنرجس القلوب اشتغلت بنفسها في حياكته وتطريزه على شكل قوس قزح. اتفقت مع الأميرة على أن أتفرغ أياماً سبعة للتعرف على جوانب الحياة في المدينة قبل أن أباشر المهمات الرسمية. اندهشت عندما خرجت إلى الشوارع بصحبتها دون أن يرافقنا حراس وحجاب. وجدتها تضحك عندما سألتها عن المرافقين والحراسات والجدار الأمنى الذى يجب أن يحمى الأمير والأميرة، فهذا تقليد لا تعرفه مدينة عقد المرجان، وتسألنى ببراءة عن السبب الذى يدعو إلى ذلك. أيقنت بأننى سأرتكب مزيداً من الأخطاء إذا اتخذت من العالم القديم مرجعاً لفهم هذا العالم، لأننى عندئذ سوف أسأل عن الإذاعة التى تنقل خطابات الأمير والصحف التى تكتب افتتاحيات التمجيد له والدبابات والمدافع التى تحرس قصره ومختلف مظاهر القوة التى لا يستقيم الحكم هناك بدونها.

كانت المدينة لا تشبه شيئاً إلا ما تمثله في ذهنى أبهى وأجمل مدن ألف ليلة وليلة، ساسان في عهد الملك شهريار أو سمرقند التى يحكمها أخوه، أو مدينة النحاس عاد إليها أهلها، يضوع عبيرها كخضاب امرأة ليلة عرسها، وتجرى قنوات الماء تحت أشجارها وتتوهج في مسقط ضوء الشمس قباب مصبوغة بماء الذهب لأبنية تحمل عبق التاريخ هى معابدها القديمة، هكذا بدت لى منذ اللحظات الأولى وأنا أمرق بصحبة نرجس القلوب مع طرقاتها التى تحفها الأشجار وأعلق البصر بشرفاتها التى تتسلقها الدوالى وأعراف الياسمين وأتأمل أعمدتها وأقواسها وبيوتها البيضاء ذات الطابق الواحد والطابقين، تحيط بها الحدائق وتزين أبوابها وشبابيكها ومشربياتها الزخارف والنمنمات، وتزدهى مداخلها ومدارجها ببهاء الجداريات ولوحات الفسيفساء. اجتزنا الأحياء السكنية التى تجاور القصر بمنازلها الغاطسة في أمنها وسلامها، وعبرنا أكثر من قنطرة فوق القنوات التى تشكل شبكة الطرقات المائية، حتى وصلنا إلى مركز المدينة بأسواقه وشوارعه التى تضج بالحركة والحياة. شارع للنجارين، وآخر للحدادين، وثالث للنساجين، ورابع للصاغة،

وخامس لصانعى الخزف، وسادس للوراقين، وسابع لدكاكين العطرية. تجاورها شوارع أخرى مأهولة بالسكان وعامرة بالمدارس والحمامات. شوارع ذات نسق معمارى متجانس، تتواصل وتتقاطع، وتلتقى وتفترق عند باحات كبيرة عرضت بها السلع والبضائع التموينية. ساحة للأقمشة والملابس والأحذية، وأخرى للمواد الغذائية من حنطة وذرة ودقيق وزيت وعسل وبقول، وثالثة للأسماك والطيور واللحوم، ورابعة للفاكهة والخضر والزهور، وغيرها للأثاث وحاجات البيوت ومواد البناء. كلها أنيقة نظيفة، صفت فيها البضائع فوق مناضد تحت الأقواس وأخرى تظللها مظلات من القماش مزينة بالعقيق، حيث تقوم العاملات على تلبية حاجات الناس وصرف البضائع التى يريدونها. كنت سعيداً لأننى أطوف الآن مدينة لا تعرف السيارات وضجيجها وأبواقها وعوادمها، ولا التفت شمالاً ويميناً خوف أن تدهسنى عجلاتها. كانت القوارب هى التى تحمل البضائع داخل المدينة، بينما يستعينون في الأرياف بالحيوانات على حمل المحاصيل إلى القوارب كما أفهمتنى نرجس القلوب. وكانت الشوارع المتعانقة، والأبنية ذات الأقواس والقباب، تشيع في

نفسى جواً من الالفة والحميمية، بطابعها المتجانس المترابط وزخارفها ذات التكوينات المكعبة والدوائر المتكررة والألوان المريحة الهادئة. وكنا نتلقى التهنئة ممن نلتقى بهم من نساء المدينة ورجالها. وتألقت نرجس القلوب عروساً من عرائس الأساطير، ارتدت فستاناً حريرياً مشجراً يلائم مناخ الربيع تزاوجت ألوانه بين البنفسجى والذهبى والفضى، وتزنرت بحزام مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة، يظهر بهاء الخصر الدقيق المجيد، ووضعت مشبك الذهب الأحمر المرصع بالياقوت الأبيض في مفرق الشعر الذى تهدلت كراديسه فوق كتفيها، وسارت بجوارى تنفث عطرها الساحر وتقوم بدور الدليل. تقود خطاى وتشرح لى ما خفي عنى من أحوال هذه المدينة. عرفت منها ان للمدينة سوراً يحيط بها من كل الجهات وللسور ثمانية أبواب تبقى مفتوحة دائماً ولا تقفل إلا إذا تعرض أمن المدينة للخطر. وصلنا في جولتنا إلى واحد من هذه الأبواب، فأدهشنى أنه يفضى إلى أرض منبسطة خضراء، وقد لاح جانب من البحيرة التى تنمو على ضفافها أشجار النخيل والصفصاف. وفي حين كانت الصحراء تمتد جنوباً فإن هذا الجزء الشمالى من المدينة هو

موطن الحقول والمراعى والبساتين التى تحف بها المياه والغابات والهضاب الخضراء. اجتزنا البساط الأخضر الذى يؤدى إلى البحيرة، نستقبل هواء الحقول التى تعبق بالطمأنينة والهدوء، وتغتسل بشمس الربيع. وقفنا قرب البحيرة التى يصطادون منها السمك ويتنزهون فوقها بالمراكب، ولاح في طرفها البعيد شلال ينحدر من إحدى الروابى صانعاً زبداً وأبخرة. قدمتنى الأميرة إلى أحد أقاربها، ابن خال لها يعمل نوتياً ويقود مركباً لصيد السمك. رحب بنا ودعانا إلى نزهة فوق مركبه. كان المركب أنيقاً نظيفاً ولكن الأميرة خشيت على فستانها من البلل، فأحضر النوتى بساطاً وضعه فوق الدكة الخشبية وقاد المركب ببطء لكى لا يتناثر علينا الرذاذ الذى تثيره حركة المجاذيف، ومضى يعبر بنا سطح البحيرة الهادئ الذى تترقرق فوقه أشعة الشمس. أعطانا الرجل خبزاً صرنا نطعم به طيور البط والبجع التى تسبح قربنا، ومن خلف الحقول تتناهى صوت غناء المزارعين. وبإحساس من يريد أن يختزن هذا الجمال ويحتفظ به ليكون زاداً في أزمنة المسغبة، أجلت الطرف متأملاً عناصر هذه اللوحة التشكيلية. في مركز اللوحة كانت تجلس امرأة مصنوعة من بهاء

النرجس تركب قارباً يمضى برشاقة فوق الماء، تحف بها قطعان البجع ونضارة الحقول، ولاحت في البعيد قباب المدينة ذات اللون الذهبى وتناثرت وسط الحقول بيوت بيضاء تضيف لوناً إلى ألوان اللوحة. لا أدرى لماذا لم أستطع أن أضع نفسى وسط الصورة وبقيت متفرجاً بعيداً، كأنى لا زلت لا أصدق أننى أصبحت جزءاً أصيلاً من هذا المشهد، مع أننى ومنذ أن خرجت هذا الصباح متجولاً، كان يداهمنى إحساس غريب بأننى سبق أن رأيت هذا كله، وأننى بطريقة غامضة لا أجد لها تفسيراً، أعرف هذه المدينة وكأننى رأيتها في حياة سابقة عن حياتى هذه. كانت نرجس القلوب هى التى أدخلتنى في المشهد. رأتنى شارداً فوضعت يدها في يدى وهمست تدعونى إلى سماع ما يقوله النوتى. وكان النوتى يتحدث عن المرجان. عرفت منه أن لصيد اللؤلؤ والمرجان موسماً يترك خلاله بعض الصيادين صيد السمك ويهتمون بالغوص لاستخراج اللؤلؤ وجمع المرجان من أعماق البحيرة. وهم يستعملون هذه اللآلئ في مبادلاتهم التجارية مع البلدان الأخرى ويصنعون منها تحفاً وحلياً لأنفسهم، ولهذا سميت المدينة عقد المرجان.

أمضيت أيام الأسبوع متجولاً عبر شوارع المدينة وميادينها وأسواقها وحقولها، متعرفاً على أسلوب معيشة أهلها، متفرجاً على الأفراح التى يقيمونها كل مساء. اختفت مظاهر الفقر والبؤس ومشاهد العنف وأكداس القبح التى كنت أراها في المدن الأخرى. لم ألتق بمتسول أو محتاج، ولم أقابل مشهداً يصيبنى بالضيق والكدر، ولم أر عراكاً أو شجاراً أو أسمع أحداً يشتم أحداً أو ألمح أناساً يتزاحمون ويتهافتون على سوق أو بضاعة. كان ما أراه عيداً يفضى إلى عيد آخر، وأفقاً للفرح ينفتح على أفق أكثر جمالاً، وبجوارى نرجس القلوب، نجمة هبطت من سمائها وصارت تدرج فوق الأرض، قطعة من الضوء والبهجة. فأمضى واضعاً يدى في يدها مشمولاً بلذة الاكتشاف ومنتشياً بكل ما يعبق به الجو من سكينة وسلام وبهاء، وما تنبض به الأشجار والأعشاب والحجارة من أضواء وألوان. حفروا عشر قنوات تشق الحقول والسهوب وتنقل ماء البحيرة إلى المزارع والمراعى والبساتين، وعشر قنوات أخرى تمرق عبر شوارع المدينة تنقل الماء إلى بيوتها وأشجارها ونوافيرها وتضيف جمالاً إلى جمال شوارعها وأحيائها، ويتم

استخدام بعضها للنقل والمواصلات. وفي المساء يغمر المدينة جو احتفالى، حيث يتجمع الناس في الميادين والحدائق والساحات التى رفعت منها البضائع، يتحلقون حول العازفين في عرس يومى، يستمتعون بمباهج الطرب والرقص والألعاب الجماعية التى يستعملون فيها أحياناً الأقنعة والملابس التنكرية. لم أر مظهراً من مظاهر الحكم والسلطة أو شرطة يطوفون الشوارع يحرسون الأمن والنظام. وكان هذا الجو الاحتفالى يشملنى أنا أيضاً فأنسى أننى غريب جاءت به الصدفة ليكون أميراً، وأمضى متنقلاً بين حلقات الرقص واللعب، يفعمنى فرح لا ينضب، وبجوارى نرجس القلوب تضحك وتصفق وتشارك في الغناء الجماعى وتحظى بمحبة الأطفال الذين يأتون مع أهلهم، فأنظر إليها متشوقاً إلى اللحظة التى تضمنى معها غرفة واحدة لأتلقى منها دفقة الحب والحنان واستمتع بمباهج الأنوثة في زهوها وسطوعها. تدلك جسمها بالطيب وزيوت الأعشاب التى تجعل بشرتها تتألق كالمصابيح وتنشر في جو الغرفة عطراً ذكياً مثيراً للشهوة. يتسال العطر إلى كل خلايا جسمى يشعل جذور الشوق والرغبة، ويمتد بنا السهر والعناق لساعات طويلة

نتسامر ونحتفل بأعياد الروح والبدن. عرفت من حديثها ومما رأيت وسمعت أثناء هذه الجولات لماذا لا توجد حبوس ومكوس ولا يعرف أهل هذه المدينة العوز والفقر، ولا يتعاملون بالنقود، ولا يملكون شرطة ولا أجهزة للدولة، ولا يعمل أحد لحساب أحد، ولا يحتاجون إلى عطلة أو إجازة يمنحها لهم الأمير، فقد أوجدوا لأنفسهم نظاماً يعفيهم من هذا كله. يشتركون جميعاً في الانتاج ويشتركون في الانتفاع به، حيث يعرض هذا الإنتاج ويأتى كل إنسان ويأخذ ما يكفي حاجته دون مقابل ودون أن يكون العمل إلزاماً أو وظيفة لها جدول ومواعيد ودوام، فقد تركوه لرغبة الإنسان وإرادته الحرة، يختار ما يحب من الأ عمال، ويعمل متى راق له العمل ويرتاح منه متى أراد. أما ما تحتاجه المدينة من أعمال عامة مثل بناء التحصينات وترميمها وحراستها فهو عمل تناوبى، يترك الواحد منهم مهنته ويتفرغ لمدة شهر واحد للقيام بهذا العمل بشكل تطوعى. وانتهى بذلك أى تفاوت في الدخل أو حاجة إلى النقود أو المكوس أو الشرطة أو السجون، كما انتهى ذلك الصراع على الرزق الذى تنشأ عنه الصراعات الأخرى، وأصبحت كل الموارد مشاعاً

بينهم، الأرض والزراعة والرعى والمواشى والمحاصيل، يعيشون جميعاً كما يعيش أفراد عائلة واحدة، ويستفيدون أيضاً مما يخرجونه من البحيرة في مواسم صيد اللؤلؤ والمرجان، يرسلون بعضه إلى البلاد الأخرى التى يذهبون إليها عبر الممرات الجبلية في قوافل موسمية، يقايضونه ببضائع وغلال وخامات لصناعاتهم كما يرسلون منه الهدايا إلى الملوك والأمراء الذين يتعاملون معهم، عقداً لأواصر الود والصداقة. وبمثل ما شكلت المنطقة الصحراوية ذات الأخاديد والمهالك عازلاً طبيعياً يمنع عبور الجيوش الغازية فإن سلسلة الجبال التى تحيط بالمدينة من الجهات الأخرى سهلت عليهم إقامة التحصينات والحراسات ووسائل الدفاع التى تحميهم من اطماع الدول الأخرى وتتيح لهم فرصة صد أى هجوم على مدينتهم. وسألت نرجس القلوب عما يفعلونه أثناء نشوب النزاعات وارتكاب الجرائم فأوضحت لى كيف أن أشياء مثل هذه لا تحدث إلا نادراً وعندما تحدث فهى غالباً ما تكون أمراً هيناً ينتهى بالتصالح، فلدى كل حى من أحياء المدينة والضياع التى تحيط بها مجلس صغير يتكون من أكبر الناس سناً يتولى حل هذه المشاكل وتنقية الأجواء.

لقد ضمنت التربية الصوفية التى يلقنونها للصغار في المدارس الارتقاء بمشاعرهم عندما يكبرون، وتعميق عواطف المحبة بينهم ونزع كل ميل للشر والعدوان. كنت متهيباً من واجبات الإمارة ولكننى تبينت أن منصب الأمير لا يحمل أية مسؤوليات. انتهى شكل الدولة وارتقى البشر إلى مستوى التعامل من خلال الذات العليا وأصبح لا دور للأمير إلا مقابلات المجاملة مع مبعوثى الدول. لم أرهم يستعملون علماً أو نشيداً أو يتخذون لمدينتهم شعاراً فكل هذه الأشكال انتهت بانتهاء الدولة التى تبحث عن رموز تثير بها العصبية الوطنية وتحرك بها حماس الناس في المناسبات القومية.

تآلفت مع هذه الحياة الجديدة فلم أعد أفكر في العالم القديم الذى انتهى أو الزمن الذى مضى برغم أنه لم يأت بعد. ولم أعد أخشى أن أستيقظ فأجد نفسى ملقى خارج أسوار هذه المدينة عائداً إلى صحراء القيظ وطيورها السوداء. أصحو كل صباح فأجد أن الأميرة قد استيقظت مثلى لنقوم سوية بالتمرين الروحى اليومى باعتباره تقليداً يمارسه كل أهل المدينة، نأخذ بعد ذلك حماماً مشتركاً ثم نتناول افطاراً من الحليب والفطائر والفاكهة ونذهب معاً في جولات التعرف

على المدينة التى تفاجئنى كل يوم بجانب جديد في شخصيتها ونظامها، فهذه دار للاستشفاء ونساء يجدن التطبيب والتمريض وحكيمات وحكماء يصنعون الأدوية من أعشاب ونباتات يزرعونها في حديقة الدار، وهذه دور فسيحة استوعبت الأطفال الذين ذهبت أمهاتهم إلى العمل، ومدارس أكثر اتساعاً وبراحاً استوعبت الفتيات والفتيان الأكبر سناً، يتعلمون القراءة والكتابة والحرف اليدوية والموسيقى وأعمال الرى والزراعة والنسيج وفنون الصيد التى يستفيدون منها في تأهيلهم لمهمات الدفاع عن مدينتهم إذا دعت الضرورة، كما يعلمونهم بجوار ذلك دروس التصوف والحكمة وأداء التمارين الروحية. وأذهب إلى المزارع فأراها مزرعة واحدة كبيرة باتساع الأفق لا تفصلها الحواجز ولا الأسوار وفي جانب منها حقول لرعى الأغنام والأبقار والخيول، وأذهب إلى ضفاف البحيرة فألتقى بالصيادين وقد جاءوا بمراكبهم ينزلون شباكهم ويفرغون حمولتها من الأسماك وأسمع الأناشيد يغنيها النوتيون وعمال مقاطع الحجارة في طرف الجبل والبناءون والمزارعون، وأعجب كيف أن العمل مهما كان مضنياً وقاسياً يتحول في هذه المدينة إلى لعب ومتعة

واحتفال يشارك فيه الناس بالغناء الجماعى، وأعرف أن لهذا الغناء وظيفة أخرى بالإضافة إلى التسلية والمرح، فهو يتيح للذهن الانشغال بالغناء عن التركيز في التعب والألم الذى يسببه العمل العضلى، وأتأمل هؤلاء العاملين الذين يتصدون لأداء أكثر الأعمال صعوبة واتساءل كيف لا يغريهم النظام الذى يربط العمل بالرغبة الشخصية بنبذ العمل والانصراف إلى اللهو واللعب أو اختيار عمل أكثر يسراً واسترخاء، فأجد أن نظاماً كهذا النظام الذى وضع الإنسان مباشرة أمام مسؤولياته لا رقيب عليه إلا نفسه، قد أفلح في رفع درجة حسه بالمسؤولية، وجعله يقبل التحدى لكى يبرهن على جدارته بالحرية. وعندما جاء اليوم الذى ذهبت فيه إلى ديوان الحكم لم أستغرب لأننى لم أجد عملاً يشغلنى لأكثر من دقائق معدودة وهو تلقى تقارير بعض المناوبين على الحراسة والمشرفين على الاستحكامات المقامة بين الجبال والتى تقول بأن كل شىء على ما يرام. كنت أعرف أننى أباشر مهمة في مدينة لا تحتاج إلى حاكم يشرف على جيوشها ومخابراتها أو يهتم بتنصيب وزرائها وقضاتها أو يتحكم من مكانه العالى في إدارة الصراع الذى ينشب بين الفئات المتناحرة على

الرزق والنفوذ ويطارد أعداء المجتمع من مخربين ومجرمين وخارجين على القانون وطاعة السلطان، ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يزهد أهل البلاد في هذا المنصب فيوكلونه إلى أول رجل تائه في الصحراء تقذف به الرياح على أبواب مدينتهم. سألت الأميرة إن كان ثمة شىء آخر يمكن أفعله بدلاً من هذه البطالة فأبلغتنى أن الأمير أيضاً يشارك بجهده العضلى في الانتاج ويباشر عمله ببساتين القصر في الساعات الأولى من الصباح. استسلمت فيما تلى ذلك من أيام لهذا التقليد الغريب الذى يجعل الأمير عاملاً يدوياً من عمال الزراعة، وفي حين تذهب نرجس القلوب للاهتمام ببساتين الورد، أرتدى ملابس العمل وأقضى ساعات الصباح الأولى أحمل رفشاً أو فأساً لعزق الأرض وغرس المشاتل والمشاركة في جنى محاصيل البقول، ثم أعود لأخذ حماماً وأرتدى بدلة الحكم وأجلس لاستقبال زائر أو تبادل الحديث مع المبعوثين الذين يعودون من زيارة البلاد الأخرى. وأجد لديهم تقويماً غريباً لا أعرفه، ينحدر من العهد البابلى، فأحاول أن أهتدى إلى الزمن الذى يفصلنى عن العصر الذى جئت منه وأكتشف من خلال أحاديث هؤلاء المبعوثين وما يقولونه عن بلاد الفرس وشبه

جزيرة العرب وحكم السلاجقة لبعض تلك المناطق أننى في تاريخ لا يبعد إلا بعض العقود عن الألف الأول للميلاد وأن ما يزيد عن تسعة قرون تفصل بينى وبين ذلك العصر، وأننى الآن أعاصر جداً من أجدادى يفصل بينى وبينه أكثر من ثلاثين جيلاً. تعاودنى الحيرة والارتباك وأتذكر من قراءاتى آلة الزمان التى تنقل الإنسان آلاف الأعوام إلى الأمام أو تعيده آلاف الأعوام إلى الوراء فهى لم تكن في حالتى خيالاً وإنما حقيقة أعيشها الآن. ينتهى عملى في الديوان سريعاً فأعود إلى القصر لأرتاح قليلاً أثناء فترة الغداء، وأرتدى في المساء ثوباً خفيفاً وأتحرر من العمامة التى لم أستطع أن أتعلم كيف أطويها فوق رأسى فصرت لا أرتديها إلا في المهمات الرسمية بعد أن وجدت من أهل المدينة من لا يهتم بارتدائها، وأذهب مع نرجس القلوب للمشاركة في الاحتفالات أو انتظار زيارة الحكيم جلال الدين الذى غالباً ما يأتى حاملاً كتاباً يتحدث عن تواريخ الممالك القديمة أو يحتوى على أشعار المتصوفين وحكمتهم أو سيرة أحد الأبطال التاريخيين، فهو يزور القصر كلما أراد أن يرتاح من عمله في صنع الأحذية، ليواصل مهماته التى كان

يقوم بها مع الأمير السابق كمستشار وصاحب رأى وبصيرة. ومنه عرفت كيف اختلط الدين الإسلامى ببعض تقاليدهم القديمة التى لم تضر بجوهره. جاءهم عن طريق أحد الرجال الصالحين من أهل التصوف الذين عبروا الصحراء إلى مدينتهم. تولى الإمارة واجتهد في هداية الناس إلى الدين الجديد دون إكراه أو عسف، وانتهت بذلك المعابد التى كان أسلافهم يعبدون فيها القمر دون أن يقيموا معابد بدلاً منها، فصار الدين توجهاً إلى ا الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، الذى وسع كرسيه السماوات والأرض، والذى احتوى كل شىء واحتواه كل شيء، مصدراً للنور والخير والهداية وكائناً أسمى تعالى عن العالمين لا يصورونه في التماثيل أو الرسوم ولا يقيمون له المعابد ولا يتخذون الوسطاء في علاقتهم به. فهو تواصل واتصال بين الإنسان وخالق الكون، وبين الإنسان وعوالم النور التى زرعها في قلبه. ولذلك فهم لا يعرفون طقوساً ولا شعائر إلا الصلاة التى يتوجهون بها إليه بقلوبهم، ويستهلون بها يومهم عندما يقرءون سورة الفاتحة ويقومون بأداء تمرينهم الروحى الذى يحافظون به على جذوة النور متوهجة في نفوسهم فلا تخبو ولا تذبل.

توثقت العلاقة بينى وبين هذا الرجل الحكيم فصرت أذهب إليه متى تأخر عن زيارتى وأقضى جزءاً من الوقت في حانوته استمع منه إلى حكمة أهل هذه المدينة وأسأله كيف اهتدت إلى هذا النظام الذى تاهت عنه أجيال تعاقبت بعدهم، فكان يسألنى مندهشاً كيف أستطيع معرفة الغيب، أو التنبؤ بأن الأجيال القادمة سوف تهمل هذا التراث، وتفسد هذا النظام بدل أن تغنيه وتضيف إليه، فأندم على ما بدر منى وأسكت عن الكلام أو أنتقل بالحديث إلى موضوع آخر، إلى أن تأتى مناسبة أخرى فأجد أن الإشارة إلى الزمن الذى جئت منه قد أفلتت من لسانى، وأننى أضرب مثلاً أو أسوق حديثاً يعتمد في مرجعيته على ذلك العصر. حدث هذا مرات كثيرة وأنا أحاور الشيخ أو أتسامر مع نرجس القلوب أو أتبادل الحديث مع الآخرين الذين أختلط بهم أثناء العمل ببساتين القصر أو الجلوس في الديوان، وكنت بسرعة أسألهم أن يغفروا لى هذا الشطط في الخيال، فلا سبيل إلى شرح مسائل تعجز عقولهم عن استيعابها. وكان لا بد أن يصل الحديث بينى وبين نرجس القلوب خلال ساعات الليل إلى تلك المنطقة المسكوت عنها من تاريخ حياتى، ولم تكن هى

تسألنى أن أذكر لها شيئاً يتصل بأهلى ونشأتى، وإنما كانت تطلب منى أن أحكى لها عن أعجب ما رأيت أثناء الأسفار التى أوصلتنى إلى مدينتهم. وكنت أجد نفسى أحيانًا أحكى لها عن مدينة ملاهى مساحتها بحجم الأرض، تضىء سماءها العاب نارية قاتلة، وأقمار من صنع الإنسان، شرب أهلها من نهر الجنون والعبقرية فصاروا يتنقلون في صناديق طائرة، وأخرى تجرى مثل الريح فوق الأرض، ويرسلون مراكبهم تستطلع أخبار الكواكب والنجوم، ويتسامرون عبر هواتف تنقل الحديث بين أصدقاء تفصل بينهم سبعة بحار، ويخترعون عاملاً آلياً ينجز العمل الذى كان يؤديه آلاف البشر، ويستخدمون مرايا تنقل إلى بيوتهم كل ما يحدث من وقائع وأحداث كبيرة في الدنيا فيرونها ويسمعونها صوتاً وصورة ساعة حدوثها، وقهروا ظلمة الليل بأشعة تجرى عبر الأسلاك ينيرون بها شوارعهم وبيوتهم، ويستعملون في حروبهم أسلحة بحجم حبات الفاكهة تسقط الواحدة منها فوق مدينة فتهلك جميع أهلها. وكانت نرجس القلوب تندهش لقوة الخيال التى جعلتنى أخترع هذه الحكايات، وأصنع هذه العوالم الأسطورية، التى لم يرد ذكرها في كل ما يتداوله

الناس من أساطير، بما في ذلك الأحاديث عن الجن وممالكهم السحرية، وكنت أسكت عن اكمال بقية القصة. أعيش مع الرواية الناقصة لكى لا تلاحقنى تهمة الجنون لو أكملتها. لقد تعلمت خلال هذه الأيام أن أهل عقد المرجان لا يعرفون الكذب، فهو بالنسبة لهم شىء لم يتم اختراعه بعد، أن الواحد منهم لا يستطيع إلا أن يكون صادقاً لأنه ليس في حياته سبب واحد يدفعه إلى قول الأكاذيب، وما أنا إلا الاستثناء الوحيد بينهم. إننى بطبيعة وضعى خارج العصر الذى شهد مولدى ونشأتى، لا أستطيع أن أكون صادقاً معهم، ولا نجاة لى إلا بالكذب، فأسكت عن الإفصاح بحقيقتى، مرتدياً ملابسى التنكرية، متسائلاً بينى وبين نفسى عن تلك الأسباب الكامنة في طبيعة الإنسان، التى تجعله يتقن لعبة الفرص الضائعة، وتجعل الخط البيانى للتدرج الحضارى ينكسر، فينتج الشرخ حروباً وصراعات وبيئة ملوثة وأسلحة فناء وتجعل المجتمعات البشرية وبعد مسيرة ألف عام تنسى المعادلة البسيطة التى صنعت مجد وبهاء الإنسان في مدينة عقد المرجان. تركوا المواطن على سجيته، خارج الأطر والنظم وقواعد الحكم والدولة، فاهتدى بفطرته ومداركه العقلية إلى

مسؤولياته، وأنجز مدنية حلمه، دون حاجة إلى وصاية المؤسسات التى تدير حياته بالنيابة عنه، أو سلطة التشريعات التى تأتى من خارج ذاته، وتفرض عليه أسلوباً في التعامل والسلوك. وبهدى من هذه التربية التى تؤكد انتماءه للكون الكبير، وموطنه الأصلى بين النجوم، مضى الإنسان يحقق تواصله مع عناصر الطبيعة، ويبنى وشائج أكثر عمقاً مع الآخرين، لتكون حياته فوق الأرض انعكاساً لهذا التوافق والتناغم مع حركة الكون، حيث يصبح كل الناس شركاء في انجاز الحلم الذى يتخذ شكل خيمة من الضياء والفرح يجلسون تحتها ويبدعون مع مطلع كل نهار حياة تليق بهم. حتى علاقات الحب والجنس بين نسائهم ورجالهم صارت تعبيراً عن هذا السلوك الذى تحرر من قمع الفضائل المفروضة. يصلون إلى سن النضج فيتزوجون، بإرادتهم الحرة المبرأة من أى غرض غير الحب يتزوجون. انتهت المصالح والتمايزات الطبقية التى تتدخل في عقد الزيجات والمصاهرات، وصارت المسألة تتم بين رجل وامرأة يحبان بعضهما ويرتبطان بهذا الرباط، وإذا نضب الحب يفترقان. حتى النسل اهتدوا إلى أسلوب ينظمونه به عن طريق معرفة

أيام الإخصاب لدى النساء. لم أر في هذه المدينة إلا عشاقاً، تقدمت بهم السن أو لم تتقدم، كلهم يحبون ويعشقون ويمارسون عواطفهم بصدق وعفوية، فاختفي من قاموسهم شىء اسمه الغش أو الخيانة أو العار. ولا أدرى لماذا وجدت نفسى في لحظة بوح ومكاشفة أطلع نرجس القلوب على أسرار الرحلة التى قادتنى إلى مدينتهم. لعلنى تأثرت بمناخ الصدق الذى يحيط بى، فلم أستطع أن أخفي حقيقتى. أو لعلنى قلت ذلك رغبة في أن أتحرر من هذا العبء الذى أرهقنى، فلم أعد اكترث بما سألاقيه من نتائج. وجدت نفسى، وأنا أجلس معها أثناء الليل بشرفة مطلة على الحديقة، نرقب القمر والنجوم التى سكبت ضوءها في أحواض وجداول الماء، أخبرها بأننى تسللت إلى عصرهم هارباً من عصر آخر يتقدم عنهم قرابة ألف عام، وأن ما وصفته لها من مخترعات لم تكن أشياء صنعت في ممالك الجن، أو أخباراً قرأتها في كتب الأساطير وإنما هى حقائق وصل إليها بشر مثلنا، كنت في يوم من الأيام التى لم تأت بعد، أنتمى إليهم. لقد استعملت شخصياً هذه المخترعات، ركبت الجو وامتلكت السيارة وسكنت في بيوت تضيئها الكهرباء وتزدحم بأجهزة

التسجيل والتصوير والمذياع والتلفاز والهاتف. سألتنى ان كنت أقول هذا الكلام هازلاً أو مازحاً، فأكدت لها بأننى لا أقول إلا ما عرفت وشاهدت، وأننى رأيت أن أكاشفها بحقيقتى لكى لا تكون علاقتى بها تمويهاً وخداعاً. رأيتها تجهش بالبكاء لأن ما قلته لم يكن في ظنها إلا هذيان إنسان مريض بالحمى.

بقيت صامتاً وقد أحسست برغم بكائها بشىء من الارتياح وصفاء الذهن. أحضرت لى شراباً مهدئاً من نقيع الأعشاب، وقادتنى من يدى إلى الفراش لكى أنام وأرتاح. عاملتنى كطفل عابث يقول هدراً لا معنى له فلم أعترض أو أقاوم. وفي الصباح أرسلت لى الحكيم جلال الدين الذى جاء مبكراً يوقظنى من نومى ويأخذنى في نزهة بين بساتين القصر قائلاً بأنه طاف بلاداً كثيرة مبعوثاً من أمراء عقد المرجان، ذهب شرقاً حتى ظن أنه وصل إلى المكان الذى تشرق منه الشمس، وقطع الصحارى والبحار إلى ممالك بعيدة باتجاه الغرب حتى وصل أقصى أطراف الأرض، رأى أقواماً من العماليق وأقواماً من الأقزام، رأى ممالك الأجناس الصفراء والحمراء والسوداء، ورأى الناس الذين يركبون

الفيلة والعربات التى تجرها الكلاب ورأى أناساً يبنون بيوتاً من الثلج وأكواخاً فوق الماء، وشاهد عجائب المخترعات والمخلوقات، ولكن ما أخبرت به نرجس القلوب وقلت أننى رأيته وعاينته شىء يفوق الوصف والخيال، ولم يأت بذكره بشر من قبل. فكرت في أن أعفي نفسى من التورط في حديث لن يستوعبه هذا الرجل مهما بلغت حكمته وفطنته، وأردت أن أعود إلى طمأنينة الذاكرة المفقودة، وأقول بأن ذاك لم يكن إلا حلماً رأيته في المنام، ولكن نفسى لم تطاوعنى، لقد اغتسلت روحى بهوائهم، وتعفرت بنرجس حقولهم، فلم يعد الكذب يواتينى. أخبرته لكل ما حققه عالم القرن العشرين من إنجازات علمية وتقنية، وما وصل إليه الإنسان من اختراعات في مجال الطب والصناعة والزراعة والطباعة والتعليم والنقل والمواصلات والاتصالات. أخبرته أيضاً بما تحقق من تقدم في مجالات غزو الفضاء وصناعة الحرب. منتهياً إلى تذكير هذا الشيخ بأن العلم لم يحقق برغم ذلك كله مدينته الموعودة، ولم يفلح في توفير شروط أفضل لحياة الإنسان من الشروط التى يعيشونها، فالإنسان هناك يعيش مهدداً بالفناء في أية لحظة لأن جزءاً يسيراً مما في

مخازن حكامه من أسلحة يكفي لتدمير الكرة الأرضية في غمضة عين.

إن معجزة هى التى نقلتنى من ذلك العالم وأوصلتنى إلى مدينتهم، وأنا لست نادماً على هذه الرحلة، بل أننى سعيد بالتجربة المثيرة المبهجة التى أعيشها، فها أنا التقى ببشر تمنيت دائماً أن ألتقى بهم وأعيش مجاوراً لهم، لأرى عن قرب هذا الإنسان الذى تحرر من الخوف واكتشف الامكانات الكامنة فيه، وأيقظ الاله النائم بداخله، فحقق تواصلاً مع روح الكون أنجاه من أمراض المجتمعات التى تلتصق بالأرض رغم آلاتها التى تدور في السماء، ورغم أنها تتقدم عنه في الزمان مسافة مقدارها ألف عام. ولا أدرى لماذا تطور العالم بهذا الاتجاه المناقض لجوهر الانسان الاله، قائلاً للشيخ بأنه لو كان الأمر بيدى لأعدت العالم كله إلى مدينتهم يتعلم منهم المعنى الحقيقى للحياة والأسلوب الأمثل لتمجيدها والاحتفال بها. سألنى الشيخ بعد أن أنصت باهتمام واستغراق إلى كلامى، كيف تأتى لى أن أطوى الزمان وأعود إليهم محملاً بهذه المعارف والأفكار. فأنبأته بقصتى مع الشيخ الصادق أبو الخيرات، صاحب الولاية والأسرار الذى استخدم علومه

الروحية وأتاح لى هذه المكرمة، رآنى متبرماً بحياتى هناك، نافراً من وجودى بين أولئك القوم، يائساً من أحوال الدنيا، تسحقنى الملالة وتثقل بدنى وروحى أمراض الاغتراب والكآبة، شغوفاً بعوالم الفرح والغبطة التى قرأت عنها في أساطير نسميها ألف ليلة وليلة، فجاء يكشف عنى الحجب ويطوى تحت أقدامى الأرض ويفتح لى كوة في جدار الزمن وينقلنى بمعجزة الإلهام والقدرة الروحية هذه النقلة المباركة من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان ومن حالة إلى حالة، ويختار لى هذه المدينة التى اكتملت زينة الإنسان فيها وتحولت حياتها إلى عرس يتجدد مع مطلع كل شمس.

ظننت أن الشيخ سوف يتملكه الذعر مما أفضيت به من أسرار لا تتفق مع منطق الأشياء، ولكنه ظل صامتاً لا يبدى انزعاجاً ولا يقول كلاماً وإنما يداعب بأصابعه أطراف لحيته مستغرقاً في التفكير والتأمل. كانت طيور الحديقة قد استيقظت من مراقدها وجاءت ترفرف بجوارنا وتواصل عزف أناشيدها، والأعشاب التى بللها الندى تصدر هسهستها اللذيذة تحت أقدامنا، وجاء من أقصى المدينة صوت ناى يحمله النسيم، فبدا الكون جميلاً يعبق سلاماً وسكينة. رأيته

صامتاً متأملاً فقلت له بأننى شديد الأسف لأنى لم أخبرهم بهويتى منذ أول يوم لوصولى، ولم يمنعنى من ذلك إلا أعرافهم وطقوسهم التى أرادت أن تعفي الأمير الجديد من الكدر والحرج فألزمته بالسكوت عن الماضى، ولكننى وجدت في قصتى شيئاً لايجوز السكوت عنه وقد تجلعهم يعيدون النظر في هذا المنصب الأميرى الذى آثرونى به على أنفسهم. وسأكون منذ الآن سعيداً إذا قبلوا بى مواطناً بسيطاً ينتمى إلى مدينتهم، أما الإمارة فلا أعتقد أن مدينة وصلت إلى هذا التوافق والانسجام في نظامها تحتاج إلى أمير مثلى يأتى من عصر أخر لكى يحكمها.

كنت صادقاً فيما عبرت عنه من زهد في الإمارة التى لم تعد مدينة عقد المرجان بحاجة إليها. كل ما كنت أخشاه هو أن أجدهم يعيدوننى إلى الصحراء، مطروداً من أرضهم، يقتلنى القيظ والعطش، وتنهش لحمى الطيور والثعابين. فهل ترانى كنت أحمق عندما غامرت بقول الحقيقة ؟. ها هى الأميرة تعتبرنى مريضاً أو مجنوناً فتأتى بهذا الشيخ الذى أسهم في تربيتها وتعليمها كى يسمع قصتى ويبحث عن علاج لمرضى، فلماذا يظل صامتاً ينظر في الفراغ بوجه

خلا من أى تعبير؟ رأيته يخرج بعد لحظات عن صمته لا ليتحدث عن مرضى، وإنما ليسألنى أن أزيده علماً بهذا العالم الذى شاهدته وعرفته. عن نظم الحكم فيه وقواعد التعامل بين الناس وطبيعة العلاقات بين الدول، وأن أشرح له ما غمض عليه من كلماتى عندما وصفت الأرض بأنها كرة قابلة للانفجار وعن هذه الأسلحة التى تستطيع تفجيرها. وجدته يأخذ كلامى مأخذاً جاداً ويسألنى كأنه يفتش في روايتى عن أدلة تثبت صحتها. أجبته بحماس لما أراد، وأخبرته بما يثقل العصر من مذاهب وأنظمة تدعى جميعاً القرب من تحقيق أمل الإنسان في العدل والسعادة والسلام. وعن القطبين الكبيرين اللذين يحتكمان في صراعهما إلى توازن الرعب، فهذا التكافؤ فيما يمتلكانه من قوة الدمار الناتجة عن استخدام الطاقة الذرية هو الذى يمنع نشوب حرب ستؤدى إلى فناء البشرية. أخبرته أيضاً بما حدث من تطور للعلوم والفنون وأقطاب الفكر والفلسفة والرسم والأدب والموسيقى، وعن تقدم المعمار والبناء الذى صار يصل إلى مئات الطوابق كى يستوعب ما بلغه العالم من كثافة سكانية، وعن اكتشاف قانون الجاذبية، وكروية الأرض وما نتج عن تطور

الرياضيات والعلوم والفلك والفيزياء من أفكار جديدة عن الزمان والمكان والحركة والمادة والضوء مما أدى إلى وصول الإنسان إلى انتاج أكثر الصناعات تقدماً وأكثر الأسلحة فتكاً. ثم أخبرته بالثورات والانتفاضات والحروب الأهلية والدينية وما يهدد الأرض من آفات شح الموارد وتلوث البيئة وتقنية الحرب. كان يسأل كثيراً وكنت أجيبه بما أعرف، إلى أن انقضى النهار وحان موعد تناول الغداء. فسألته عندما رأيته يعود إلى صمته عما إذا كان يصدق ما أخبرته به. أجابنى بأنه وصل مرحلة من العمر تجعله يوقن بأن أى شىء يمكن أن يحدث، لقد عاش طويلاً وشاهد وسمع وقرأ تاريخ الأمم، فما عاد يدهشه أمر هذه الخوارق والمعجزات التى تحدث للبشر. إنه لا يجد سبباً يدفعنى إلى تلفيق حكايات مثل هذه، ولا يعتقد بأننى مهووس أو مريض بالحمى، فما أقوله من كلام لا يقوله إلا من كان واثقاً مما سمع ورأى وعايش معايشة شخصية. إنه يصدق بأن ما رأيته هو فعلاً عالم الغد، ويعتقد بأن ما حسبته حياة عشتها هناك لم تكن إلا رؤيا من تلك الرؤى التى يشاهدها أصحاب البصيرة النافذة. ومن فرط صدقها ونفاذها إلى قلب الحقيقة

ينسى صاحبها كل شىء عرفه وعاشه قبلها. تمتلئ الذاكرة بهذا الفيض وتدفع بكل شىء آخر إلى مناطق النسيان حتى يظن صاحب الرؤيا أن حياته ابتدأت بها. وهو يذكر قصصاً كثيرة عن أصحاب بصيرة وكرامات من أهل الماضى استطاعوا الرحيل إلى الزمن الذى جاء بعدهم وتنبئوا بأحداثه وكأنهم شهود عليه، وآخرين رأوا أنفسهم يصعدون إلى السماء وجاءوا ينقلون صورة عما رأوه من برازخ وأنوار وأعراس تقام فوق النجوم وما سمعوه من أناشيد وغناء وما التقوا به من ملائكة وأنبياء. وما أقوله الآن ليس إلا كلام رجل كشفت عنه الحجب ورفعت من أمام عينيه سجف الزمان وظلماته فرأى ما رأى وسمع ما سمع وكأنه واحد من أهل ذلك الزمان. لم أجد سبباً يدعونى إلى أن أجادله في هذا التفسير، يكفي أنه امن بما قلت ولم يجده دليل عته وجنون. إنه رجل تربى في رحاب أهل التصوف وعاش مجاوراً لهم وقارئاً نهماً لأشعارهم وأسفارهم إلى الممالك الإلهية، فلا عجب أن يجد لروايتى مرجعاً في هذه الحصيلة من معارفه الصوفية. ما يهمنى الآن هو أننى كاشفتهم بحقيقة ما حدث

معى وتحررت من هذا العبء الذى كان يعطل استمتاعى بالحياة الجديدة.

كانت نرجس القلوب عندما عدنا إليها ما تزال مهمومة لم تغادرها حالة الفزع، سألها الشيخ أن تنهض وتعانقنى، لأن ما قلته ليس إلا بشائر سعد أهلت على المدينة. إن معجزة تحققت على يدى وأقداراً عليا اختارتنى للسفر إلى المستقبل عن طريق الكشف والرؤيا ثم قادتنى إلى أبواب هذه المدينة لكى تستفيد من المعار ف العجيبة التى تزودت بها.

أفزعتنى فكرة أن الشيخ يريد توظيف خبرتى في تطوير هذه المدينة. أننى لا أستطيع أن أختزل خبرة ألف عام من جهود العلماء والمجامع العلمية لكى أصنع له مصباحاً كهربائياً واحداً، إذا كان هذا ما يقصده، وفيما يتصل بالنظم والسلوك والمعاملات والقواعد التى تحكم العلاقة بين الناس فإنه لن يجد مدينة في الكون تضاهى مدينته. إنه ليس بحاجة إلى تلك الآلة مهما كان نفعها، وليس في حياة الناس هنا ضرورة لها أو تحدياً يوجب اختراعها، وإلا لجاء ذلك نتيجة طبيعية لتوفر الشروط والمعطيات لظهورها. فليصرف النظر عن هذا الفضول الذى لا معنى له، وليعلم أن اختراع السيارة

بكل منافعها لا يساوى عدد الضحايا الذين يموتون بواسطتها كل يوم. كنت وأنا أطوف شوارع المدينة مشمولا ببهاء النقوش والزينات والزخارف، وشفافية الماء الذى يحمل البجع والقوارب، مفتوناً بحركة الضوء فوق حدائق الورد وحقول العشب وذوائب الشجر، غاطساً في أنوار الغبطة الصاعدة من الميادين التى تشرب من نوافيرها الطير، مأخوذاً بنفحة عطر من شعر امرأة تمرق بجوارى أو رفيف أجنحة قبرة أو قطاة تحط دون وجل على طرف المقعد الذى أجلس فوقه، اختلط بالبشر الذين يختلفون إلى الساحات والحدائق ويملئونها فرحاً وموسيقى، أو أولئك الذين يعزقون الأرض أو يجنون المحاصيل أو ينسجون أثواب الحرير أو يتجولون في الأسواق، كنت أحس بتواصل باطنى عميق، مع كل ما ينبض به المكان من حركة وما يفيض به من بهاء، وكنت على يقين بأن ما يربط بينى وبين مظاهر الحياة في هذه المدينة علاقة تتجاوز علاقة الرائى بما يرى، أو انفعاله بما تستقبله الحواس وتتلقاه العين من مشاهد قادمة إليها من خارج الذات. وكنت أتساءل كيف لمدينة مهما كان جمالها، أن تبعث في النفس احساساً بالبراءة الأولى وتكون مصدراً

لهذه الشفافية التى تنتمى إلى مدن السماء لا إلى مدن الأرض، وأجد راحة عميقة عندما أقول في خاطرى بأننى اهتديت إلى مفاتيحها السرية، وإن هذه المدينة إنما تنبثق من حلم رأيته، فما علاقتى بها إلا علاقة مبدع بالصورة التى أبدعها خياله، وما أنا إلا صاحبها الذى أنشأها من خميرة التوق الإنسانى إلى الينابيع التى يرتوى منها القلب، أنا الذى أشاد هذه الشوارع والميادين والأبنية والشرفات التى تضيئها القناديل والأغنيات، وصنع لها سقفاً من سماء صافية الزرقة عامرة ببهاء الأقمار والنجوم. أنا الذى شق قنوات الماء وغرس الأشجار وعرائش الكروم، وملأ المدينة برجال أصحاء ونساء متوردات الخدود، وأنا الذى زرع هذه الفرحة فوق وجوههم وأضاء بقيم الخير والمحبة قلوبهم وصنع لهم هذا النظام الذى ينبع من ذواتهم ويحكم سلوكهم ومعاملاتهم، أنا الذى رسم هذه النقوش ونسج هذه الأثواب من حرير القلب وزبرجد الروح، وأنا الذى أفرغ المدينة من الهموم والمشاكل والشره والطمع والغرور والتلوث وأسلحة الفتك والدمار وحصنها بالجبال والبحيرات وأطلق في سمائها عصافير الهناء والأمن والسلام. وإذا كان الإسكافي ذو اللحية

المصبوغة بالحناء الذى صنعته ليكون رمزاً لحكمة الأجيال قد جاء مدفوعاً بشهوة القوة والحمية الوطنية يريد أن يستفيد من معارف العصر الذى تركته خلفي فما ذلك إلا عصيان لسلطة الحلم وخروج على هذا التصميم الذى أردته لعقد المرجان، وسوف يفسد بفضوله هذه المدينة التى لم تخرج إلى الوجود إلا بعد أن اكتملت عناصرها ونضجت فكرتها في مخيلتى. لقد جئت إلى هذه المدينة هارباً من أسقام الروح وتلوث المدن والصراع المدمر على الرزق والسلطة وتقنية الحروب وتجارة الموت، ولن أسمح لأية فكرة طارئة، دخيلة، هجينة، أن تفسد هذه الصورة، وإلا ضاع الحلم الذى تجسد حقيقة فوق الأرض وتبخرت مدينته في الهواء.

ذهبت بصحبة نرجس القلوب إلى مباشرة عمل من أعمال الإمارة وهو استقبال قافلة جاءت من شيراز محملة بأصناف من الأقمشة والسجاد العجمى وقوارير الطيب مع عشرين جارية من أملح نساء الفرس. استقبلت المبعوثين في الديوان وتقبلت هدية أميرهم شاكراً وأبلغته رسالة تقدير وامتنان رداً على رسالته وأجبته إلى طلبه وهو إرسال بلسم اشتهرت به عقد المرجان يزيل المضاعفات الناتجة عن برد

العظام. وجاء أحد المناوبين للحراسة بالبلسم كما جاء بطبق ملىء بالمرجان هدية لأميرهم. ذهبوا للاستراحة بالخان المخصص لضيوف البلاد، وسألت نرجس القلوب عما يفعلونه بالجوارى فأبلغتنى أنهم يبعثون بهن إلى المؤدبين والمعلمين من أجل إعدادهن للعمل مشرفات على دور الحضانة أو مشتغلات بالتمريض أو عاملات في المزارع ومشاغل النسيج. كانت بينهن واحدة فارعة الطول، معقودة الحاجبين، حنطية البشرة، تتفجر بهاء وأنوثة، تمنيت لو أن تقاليد المدينة تتيح للأمير أن يمتلك جارية مثلها كما يفعل حكام ألف ليلة وليلة، فهى امرأة مثيرة للرجولة بما تملكه من جاذبية جنسية، وجسد مكتنز عامر بالثمار الشهية، ولكننى حاربت هذه الرغبة في نفسى مستمداً من نرجس القلوب عوناً على مغالبة الضعف، والامتثال لنواميس هذه المدينة التى لا تتيح لامرائها إلا ما تتيحه لكل فرد من مواطنيها.

كان الإسكافي الشيخ ما زال متحمساً لتوظيف ما نقلته له من معارف ومعلومات في إنتاج شىء تتميز به عقد المرجان عن بقية الممالك والأمصار. قلت له أننى للأسف البالغ لا أملك معرفة بالهندسة والرياضيات ولا أملك عقلاً

يستوعب العلوم الطبيعية. إننى رجل يتعامل بالخرافات والأساطير، ولا بد أن هذا الخيال هو الذى أفادنى في عبور صحراء المهالك وأوصلنى إلى مشارف هذه المدينة التى ما كنت لأصل إليها لو أننى أملك عقلاً رياضياً يتعامل بالأرقام والمعادلات والنظريات العلمية الصارمة الدقيقة. ولكن الشيخ جاء يقول بأن في المدينة رجالاً مهنيين يملكون عقولاً رياضية ولن يقتضى الحال إلا أن أحكى لهم عن بعض هذه الاختراعات وأن أبدأ بأكثرها بساطة وأقلها تعقيداً. ما هى السيارة؟ ما هى آلة التصوير؟ ما هو الهاتف؟ ما هو المسدس؟ ما هو المدفع ؟. إن أى شىء أقوله عن هذه الاختراعات سوف يفيدهم وسوف يجتهدون في الوصول إلى كيفية إنجازه. وأن بإمكانهم التقاط فكرة عن إحدى الآلات التى ورد ذكرها في حديثى والوصول إلى نتيجة إذا عرفوا شيئاً عن القوة التى تسيرها، إنها تروس تدور، فما الذى يدير هذه التروس، إنها الطاقة التى تنتج احتراقاً داخلياً، كيف إذن تتولد الطاقة، ذكرت شيئاً عن البخار والغاز والمازوت والكهرباء، كيف يمكن الوصول إلى بعض هذه العناصر التى تخلق هذه التأثير. هذا ما سوف يفكرون به ويصلون إليه

بعقولهم المدربة على التفكير التقنى والمهنى. أوضحت له بأن الوصول إلى اختراع كهذا شىء مستحيل لأنه يسبق عصره، وحتى إذا لم يكن مستحيلاً فإننى أخشى أن يلحق الأذى بهذه المدينة التى اكتملت ولادتها على هذه الصورة. قلت لنفسى بأنه كان ممكناً للقوى التى ساقتنى إليها أن تسوقنى إلى مدينة مليئة بالآلات والاختراعات، وكان يمكن لهذا السفر الذى جاء سفراً إلى الماضى أن يكون سفراً إلى المستقبل وإلى مدينة يعيش أهلها فوق محطات الفضاء ويعاشرون البشر المصنوعين من أسلاك ومعادن وأزرار، ولكننى هكذا تمنيتها وهكذا جاءت مطابقة لما أتمنى حيث تنبع القيم من نقاء الفطرة لا مما تفرضه آلهة القوة والأدمغة الآلية. ولأنها كذلك فقد التزم الإنسان فيها بهذه القيم وصار قادراً على تطويرها بالاتجاه الصحيح لا الاتجاه الذى يفسدها ويدمرها. فلماذا لا ينسى الإسكافي هذا المشروع الذى لا يدرك خطورته ولا ينبع من حاجة المدينة وخبرتها، وينشغل بجلوده ومساميره ونعاله فهى أجدى لهؤلاء الناس من الجرى وراء أوهام المجد القادم مع رائحة المازوت. .

وجدته متحمساً فلم أشأ أن أعارضه أو أدخل معه صراعاً لا أعرف نتائجه. أمطرني بأسئلة عن الكيمياء والفيزياء وقوانين الحركة والاحتراق وتكون الغازات فأجبته بما أذكره من معلومات الكتب المدرسية. كنت على يقين من أنهم يحتاجون إلى قرن من الزمان حتى ينشئوا هيكل سيارة لا محركها أو ماسورة مدفع لا ذخيرته. إنني بحكم مجيئي من زمن يتقدم كل هذه المدة عن زمانهم أدرك متى تمت صناعة هذه الآلات، فلماذا القلق إذن؟ أرادني أن أشرح للحرفيين ما أعرفه فأبلغته بأنني لا أعرف شيئاً أكثر مما قلته له، وبإمكانه أن ينقله إليهم إذا أراد. ذهب يطوف على الحرفيين ويجندهم لمشروعه، وذهبت وحيداً أهيم في شوارع المدينة على غير هدى. استأذنت من نرجس القلوب قائلاً بأنني سأغيب بعض الوقت فلا أريدها أن تنشغل أو تقلق. كنت في الحقيقة أخشى أن ينشأ خصام بيني وبين الإسكافي يجعلني أترك له القصر وأعتزل الإمارة، فاقتطعت وقتاً أقضيه مع نفسي وأتعرف خلاله على أحياء المدينة معرفة تفيدني إذا حدثت مثل هذه القطيعة. ذهبت متحرراً من أثواب

الإمارة وطقوسها عازماً على أن أبقى يوماً أو يومين بعيداً عن القصر ومستشاره.

كان أهل المدينة قد بدءوا يتركون أعمالهم ويخرجون إلى الحدائق والميادين لإقامة الاحتفالات كما يفعلون كل مساء. جلست على مقعد بإحدى الباحات أراقب نساء ورجالاً يضعون الأقنعة فوق وجوههم ويرقصون على صوت الموسيقى رقصة الغابة. يتحولون إلى نمور وأسود وثعالب، ويتحاورون بالرقص حول إدارة مملكة الغابة. لم أنتبه وأنا أراقب الراقصين إلى المرأة التى أتعبها الرقص فخرجت من الحلقة لتستريح، ولم أرها إلا عندما نزعت عن وجهها قناع النمر وقد جلست في الطرف الآخر من الدكة الخشبية التى جلست عليها، تمسح بمنديل أزرق حبات عرق تلألأت على جبينها. أذهلنى جمال عينيها فقلت في نفسى لعل ظهور هذه المرأة المفاجئ وانبثاقها بغتة بجوارى لم يكن إلا تجسيداً لرغبة راودتنى هذه اللحظة. إننى بحاجة إلى مصاحبة امرأة من أوساط الناس العاديين أتعرف عن طريقها إلى جوانب أخرى من الحياة لا أستطيع أن أعرفها وأنا أرتدى ثياب الأمير وأتجول بصحبة سيدة القصر. صرت الآن اعتقد أننى

قادر على اجتراح مثل هذه المعجزات الصغيرة، وطالما أن المدينة ذاتها ليست إلا تجسيداً لفكرة تخيلتها، كما ينبئنى حدسى، فلماذا لا تكون هذه المرأة السامقة، الغزيرة الأهداب، التى تزين مفرق شعرها قرنفلة حمراء، كائناً بديعاً أنا الذى صنعته هذه اللحظة. بدت هذه الفكرة رغم استحالتها، طريفة ومسلية، سأدعى لنفسى أننى فعلاً أوجدتها من أجل مرافقتى ومؤانستى وتعويضى عن فراق نرجس القلوب، وسيجعل هذا الإحساس مهمتى في التعرف إليها أكثر يسراً، إذ كيف أحس بالحرج أو الخجل من الحديث إلى امرأة أنا الذى خلقتها. وازددت تمسكاً بهذه الفكرة عندما رأيت أن ملامحها تتطابق مع ما أحب وأشتهى، هذا الألق القادم من عينيها المتوهجتين بألوان الفجر وأسراره الغامضة، وهذه البشرة التى تشف وتضىء وتصبح شفقاً يحتويه إناء من البلور، وهذه الابتسامة التى تصنع عيداً للقلب وتبرز عند ظهورها سحر الغمازتين المذابتين في صحن الشفق، وهذا الفم الذى يصنع دائرة للرغبة لا ينفذ منها إلا من شفه الوجد حتى صار شعاعاً، هاتفاً من خلال انفراجته اللذيذة بنداء ساخن ملح عاجل يبعث الحرقة في شرايين القلب، وهذا الجيد الأتلع الذى يكاد من

صفائه أن يكشف عن سريان الدم في العروق، وقد انهمرت فوقه جدائل شعر كثيف ناعم يفوح بأريج الياسمين، وهذا الصدر الناهد الذى يحاصره ثوب حريرى تتخال زرقته نقوش فضية فيبدو كزبد الموج فوق بحر أسطورى. ليس فقط جمالها ما كان يثير في نفسى انفعالات خالق ينسحق ويذوب تحت سحر مخلوقته، وإنما أيضاً هذا الحضور الساطع المهيمن الذى يصنع دائرة حوله يبسط فوقها نفوذه وسطوته. لعلنى لم أكن أملك صورة كاملة عن امرأة القلب ولا أستطيع أن أتصور ملامحها ولكننى الآن وأنا أراها تجلس بجوارى أحس بأننى ما حلمت إلا بهذه المرأة، ولا هفهفت أشرعة الفؤاد إلا إليها ولا ظهرت في مرايا الماء والسماء التى تنعكس عليها خبايا النفوس إلا صورتها.

جاء الغسق، وبدأ الليل يرسل غبشاً يزحف على الساحات والأبنية والحدائق، في حين خرج عمال الإنارة يوقدون المشاعل. سألتها وكأننى أواصل الحديث الصامت الذى بدأته منذ لحظات معها:

- هل تسكنين قريباً من هنا ؟

- إننى أسكن في البساتين، خارج السور.

- هل تستطيعين العودة إلى بيتك في الظلام ؟

- وهل ترى أن الجو ينذر بعواصف يتعذر معها الاهتداء إلى الطريق.

- أعنى ألا تخافين ؟

- من أى شىء تريدنى أن أخاف ؟

إننى أتحدث بمقاييس عالم يختلف عن عالمها، عالم أحمله معى إلى مدينة انتهى منها الخوف حتى أصبح كلمة غريبة لا أحد يستخدمها. لماذا تخاف طالما أن أميراً صالحاً قام بسجن كل الأشباح داخل غرفة سرية. إن لهذه المرأة تجربة في الحياة زودتها بخبرة تختلف عن خبرتى ولهذا فقد أضحى صعباً التسليم بأننى أنا الذى خلقتها، وما تقوله لا يوحى بأنها جاءت إلى الدنيا منذ دقيقة واحدة فقط. سأجرى تعديلاً طفيفاً على الفكرة، وسأعتبر أن إرادتى هى التى استدعتها إلى الحضور وأرغمتها على الخروج من بيتها والمجىء للقائى في هذا الموعد وهذا المكان.

- أقصد ألا تخافين الوحوش ؟

- وهل هناك وحوش غير تلك التى تعيش في الأدغال؟

أعرف جيداً أن الوحش الذى يعيش على أبواب طيبة قد انتحر عندما وجد إنساناً يعرف الجواب، فلماذا طرح الأسئلة التى انتهى منها البشر. قلت قبل أن ينتشر الذعر بين الناس نتيجة كلماتى التى تفضح جهلى بأحوال هذه المدينة:

- فكرت أن نترافق في طريق العودة إلى الحقول.
- هل تستطيع الانتظار ؟
- نعم.

عادت إلى ارتداء قناعها تشارك في الرقص وتدخل صراعاً ضارياً نشأ بين الأسود والنمور بسبب الفتنة التى أشعلتها الثعالب. كان الرقص تنفيساً لما يعتمل في النفس البشرية من مشاعر وهواجس. إنها رقصة يطردون بها كل الانفعالات البدائية التى تختفي في طبقات العقل الباطن، يتحررون منها عن طريق هذه الرقصات لكى يعود الواحد منهم لممارسة حياته أكثر نقاء وصفاء. هكذا أدركت كيف أن اللعب هنا يؤدى أيضاً وظيفة تربوية وتهذيبية. حان موعد عودتها إلى البيت فقمت أرافقها في الطريق الذى يفضى إلى خارج السور. كانت السماء صافية كثيرة النجوم. وهواء الليل مفعم بعطر البساتين، والمشاعل التى ارتشقت على

جانبى الطريق تنثر لهاث ضوئها الذى اختلط بالعتمة وظلال الأشجار. غمرنى إحساس بالألفة وأنا أمشى بجوارها فخطر لى أن أسألها إن كانت امرأة متزوجة، ثم عدلت عن السؤال عندما تذكرت أن النساء في عقد المرجان لا يتزوجن عادة في هذه السن، إنها مرحلة العلاقات الحرة التى تسبق الارتباطات الزوجية وتربية الأطفال والانشغال بالحمل والرضاعة ولذلك فإنهن يتأخرن في الزواج إلى سن الثلاثين، بينما هى لا تزال في أوائل العشرينات من عمرها.

- هل تعيشين مع أسرتك ؟.

- نعم، وأبى وأمى ينتظراننى الآن ولا يتناولان العشاء حتى أعود. إننى ابنتهما الوحيدة.

وأنا الابن الوحيد لزمن لم يأت بعد، فكيف أقدم لها نفسى ؟.

تناهى إلينا صوت عزف يأتى من وراء أحد الأبواب فأخبرتنى بأن هوايتها هى الموسيقى وأنها تترك مشغل الملابس الذى تعمل به وتذهب لأخذ دروس في العزف. ثم فاجأتنى بالسؤال عن مهنتى. قلت لها بأننى جئت حديثاً إلى مدينتهم، وأننى تخلفت عن العودة مع القافلة التى أوصلتنى

لأننى أحببت أن أقيم بينهم وأفكر في عمل يتفق مع تجاربى السابقة في البستنة وغرس المشاتل.

- إذن فأنت تقيم بخان المدينة.

- مؤقتاً.

- ولماذا أتعبت نفسك بالمجيء من هذا الطريق ؟

- لمجرد النزهة والاستمتاع برفقة لا أجدها في فندق الغرباء.

- ما رأيك أن تبقى معنا هذه الليلة وتكون ضيفنا على العشاء ؟

فاجأتنى البساطة التى قالت بها كلماتها. رحبت بهذه الدعوة التى جاءت بحسب ما أشتهى وكأننى أنا الذى وضعت الكلمات في فمها. وصلنا إلى بيتها وقدمتنى إلى والديها. برغم أنهما يقتربان من سن الشيخوخة إلا أنهما يتدفقان نشاطاً، كان العشاء لحوماً مقددة أعيد تسخينها، وأطباقاً من الخضار المسلوق وسلطات الجرجير والخس والبقدونس. شاركتهم العشاء كما شاركتهم الشراب عندما أحضرت الأم زجاجة نبيذ خاثر معتق، عرفت أنه من مخزون العائلة الذى لا يقدم إلا في المناسبات. كان الفضول لمعرفة تفاصيل

حياتهم يدفعنى إلى أن أتجه بالحديث نحو هذه الوجهة. عرفت أن الأب والأم أيضاً يعملان، ترك الرجل العمل بمقالع الحجارة وإعداد الطوب للبناء وتركت الأم العمل بالحصاد وجنى المحاصيل، وتفرغ كل منهما لعمل يتناسب مع سنه وهواياته، فالأب يربى النحل في حديقة البيت وينتج عسلاً يرسله إلى مراكز التوزيع، ولأنهما يملكان في الحديقة عدداً من أشجار التوت فقد استعملتها الأم في إطعام دود القز وانتاج الحرير. طاب لنا السهر وتركوا لى أغلب زجاجة النبيذ. وجاءت نشوة هذا الشراب البالغ الدسامة تنسينى حالة القلق التى أخرجتنى من القصر. أحضرت الفتاة عوداً عزفت عليه وغنت غناء يشبه الموشحات الأندلسية. كنت قد عرفت أن اسمها بدور وأخبرتها بأن اسمى خليل لأننى اشتقت لأن أسمع كائناً جميلاً مثلها ينطق هذا الاسم قبل أن يندثر من الوجود. كانت بدور وهى تعزف عودها تسبل رموش عينيها وتحنى رأسها فوقه وقد تهدل شعرها الأسود يغطى جانباً من وجهها وتلامس أطرافه الأرض فتبدو الموسيقى وكأنها قادمة لا من أوتار العود فقط ولكن من شعرها ووجهها وقوامها كله. سألونى أن أنشد لهم شيئاً من محفوظاتى فغنيت المقاطع

الأولى التى أذكرها من أغانى سيد درويش. كانت هذه الأغانى غذاء لغربتى في صقيع المدن الشمالية وها هى اليوم تعود إلى الذاكرة في زمن سبق زمن مؤلفها بتسعة قرون. أعجبتهم الأغانى برغم كلماتها التى تختلف عن أسلوب نطقهم لها، وتأخر بنا الليل فذهب الرجل وزوجته إلى النوم بعد أن رحبا ببقائى في بيتهما هذه الليلة. اصطحبتنى بدور إلى غرفة نومها وأعدت لى فراشاً في ركن من أركانها وأحضرت لى جلباباً للنوم. ولم تجد حرجاً في أن تخلع ملابس النهار في حضورى وترتدى قميصاً شفافاً يظهر تورد بشرتها ونقاء جسمها وتفاصيله الأنثوية، دون أن يعنى ذلك ما تبادر إلى ذهنى من أنه دعوة إلى المعاشرة وإنشاء علاقة أكثر من علاقة الود بين ضيف ومضيفته، لأنها تركتنى أنام في فراشى وأطفأت القنديل عائدة إلى فراشها. اكتشفت في الصباح أن للغرفة نافذة تطل على الحقول التى تترامى باتساع الأفق والتى تفضى إلى مشهد البحيرة والشلالات المنهمرة من رواب خضر، ومن خلف الربى انبثقت قمة جبل تغطيه الثلوج. كان المشهد ينبض بجمال الصبح، وكان المدى يضج بثراء الزهور والعشب ونثرات الفضة التى يصنعها

الندى، والهواء يتدفق عبر النافذة مغسولاً بالشذا والعبير. وكانت أنثى الربيع تستيقظ الآن من نومها. لن يضيرنى أن أبقى هنا بضعة أيام بصحبة هذه المرأة التى أرسلتها لى آلهة الحلم. سأحاول أن أكون نافعاً لأهل هذا البيت، جديراً بصحبتهم، ومستفيداً من خبرتى في العمل بحدائق القصر انهمكت منذ أول يوم في العمل بستانياً معهم، أشذب أشجار الحديقة وأسقيها وأقتلع الأعشاب الطفيلية من أرضها. وجدت حوضاً للأحياء المائية مقاماً بالحديقة فتوليت تنظيفه والاعتناء بتغذية أسماكه. طلبت أن تتسع قلوبهم لاستضافتى بضعة أيام حتى أتعلم منهم الحرف التى يجيدونها، فاستجابوا إلى طلبى ودعونى للمشاركة في إنجاز الأعمال التى يقومون بها، ونقل إنتاجهم إلى مراكز التوزيع، والذهاب معهم في ساعات الراحة إلى النزهات التى يقومون بها إلى الحقول القريبة من الروابى وشلالات الماء، حيث يقطفون الأزهار البرية، ويفترشون الأعشاب، ويتناولون طعامهم بصحبة الطيور التى تدرج بجوارهم. وعرفت أثناء مصاحبتى لهم كيف أنهم يعتبرون تقديس الطبيعة والتمتع بها جزءاً من وجودهم الروحى، وعافيتهم النفسية والبدنية. يندمجون مع إيقاعها،

ويرقبون حوار ضوئها وظلالها، وينشئون علاقة حميمة مع زهورها وطيورها وأشجارها ومياهها، كدليل على هذه الوشائج التى تربط الإنسان بمحيطه وبيئته الطبيعية. أمضى بصحبتهم، أرقب هذه المشاهد بانفعال طازج ساخن، واغترف من هذه العوالم بكل ما تتيحه حواس البصر والسمع والشم والذوق واللمس من متعة واندماج. وجدت مداركى أيضاً تتفتح على فهم مظاهر الطبيعة، وما يحدثه ذلك من أثر في نفسى، وما يحققه من انسجام بين الموسيقى الخفية التى يعزفها الكون، والموسيقى الداخلية التى تعزفها الجوارح والأحاسيس، فهو لقاء يطرد النغمة النشاز، ويوقظ ملكات وطاقات حسية وروحية، ويرتقى بالمشاعر والعواطف لتكون قادرة على مقاومة الانهيار تحت تواتر الأيام ورتابة الأشياء المعتادة. أحمل عبء نشوتى، وأقف فوق الرابية أتأمل تحولات الضوء وتموجاته فوق اختلاجات الماء والعشب، واحتفي بما أراه من نباتات ذات عطر وألوان، وما يطرأ عليها من غبطة وشجن، وإشراق وشحوب، وفقاً لكل أقنيم تنتقل إليه الشمس، ولا أكتفي بالنظر إلى زهورها وبراعمها وأوراقها، وإنما أتأمل اللحاء الذى يغطى سيقانها وأغصانها،

فهو أيضاً يقول شيئاً عن طبيعتها، وأنظر بعين جديدة إلى صخور الجبل وما ترسمه فوقها عوامل الريح والتعرية من تكوينات غريبة وأشكال نحت هلامية، وكأن لهذه الصخور لغة سرية تخاطب بها الكائنات. وأتأمل للحظات طويلة غصناً كسرته الريح، فتجمعت عند موقع الشرخ أتربة أنبتت زهرة طالعة من قلب الغصن المكسور، لها تاج بلون الذهب الأحمر، فأركض إلى بدور أخبرها وأسحبها من يدها لترى هذه المعجزة الصغيرة التى تفتقت عنها حكمة الزهر والشجر، قائلاً لها بأن هذا هو البرهان على صدق ما ترويه أسطورة الخلق عن انبثاق الأنثى من ضلع الرجل المكسور. كنت أترك البيت أحياناً دون هدف إلا هدف الاستمتاع بالطبيعة في جلالها الباهر أو الحديث إلى أناس أقابلهم صدفة، فيقبلون بى ويحتفون بالحديث إلى، رغم أنهم لا يعرفوننى، مزارعين وحطابين وصيادين في طريقهم إلى الغابة وأصحاب مراكب صيد، ونساء عاملات بالحقول، ثم أختار ركناً على ضفة البحيرة تنمو فيه أشجار صفصاف تهدلت شعورها الخضراء تلامس الماء، يذكرنى منظرها بأعراس البادية التى شاهدتها في طفولتى المبكرة، عندما

كنت أرى النساء يرفعن الأغطية عن شعورهن التى تهدلت أمام وجوههن في رقصة النخيخ، يستيقظ المشهد القديم في ذاكرتى، وأنتبه إلى أنها صارت ذاكرة انتقائية لا تستحضر من الماضى إلا ما كان متفقاً مع بهجة الزمن الجميل الذى أحياه. أجلس هناك فوق العشب أرقب الشمس الغاربة وألوانها الذائبة في مياه البحيرة وانتظر بدور التى تطورت علاقتى بها فصارت ترافقنى في جولاتى عند انتهائها من العمل، أو تأخذ نصف يوم إجازة نذهب أثناءه في رحلة لتسلق الجبل، ومشاهدة المدينة من ذروته العالية. كانت تحب زهور الأكاسيا، فتعود بحزمة منها وحزمة من عراجين الفل والياسيمن تملأ بها مزهريات البيت، وتزين بها شعرها في الاحتفالات التى تقام أثناء الليل. وجدتها ذات ليلة تضع عطراً في فراشها، فعرفت أن العلاقة بينى وبينها وصلت إلى مرحلة أكثر عمقاً وحميمية. حدث ذلك بعد أن عدنا من مغامرة تسلقنا خلالها الجبل ووجدنا نبع ماء ساخن يتفجر بين الصخور. لم تكن بدور قد رأت هذا النبع من قبل ففرحت باكتشافه، ودون أن تقول شيئاً، نزعت ثوبها وسارت عارية تتلألأ كموجة من الضوء حتى دخلت تحت مياه النبع تغتسل

وتضحك وتعبث بالماء وتدلك العنق والصدر والخصر والردفين، وتسألنى أن أدخل الماء مثلها، وقفت خاشعاً ذاهلاً أرقب الجسد الممجد يؤدى طقوس الاغتسال، وأملأ بصرى من مشهد الماء الذى يترقرق فوق جسد كالنار. كان الطقس في تمام اعتداله وكان المكان خالياً تحف به أشجار تين وزيتون، أغرانى هذا التواطؤ المبارك بالمغامرة، فخلعت أنا أيضاً ثوبى ودخلت مثلها تحت مياه النبع الساخنة، وكأننى أدخل طقساً يطهرنى ويعيد خلقى ويتولى اعدادى لمهمة جليلة، ولم أعرف هذه المهمة إلا عندما ضمتنا غرفة النوم ليلاً وجلست فوق السدة بجوارها فمنحتنى بهجة فمها وأغرقتنى في لجة الفرح الذى يضج به صدرها وأدخلتنى إلى الغرفة التى خبأت بها أسرارها وكنوزها فصرنا بعد تلك اللحظة عاشقين يستخدمان فراشاً واحداً كلما جاء موعد النوم.

لم أنس المهمة التى تركتها في القصر ولا المرأة التى تنتظر عودتى، ولكننى وجدت أن هذه الحياة البعيدة عن طقوس الأمراء تتلاءم مع طبعى وتكوينى، فصرت أرجئ عودتى إلى القصر يوماً بعد يوم، دون أن أعرف كيف ستطاوعنى

نفسى على هجر هذه المرأة التى القت شباكها على طائر القلب وأخذته أسيراً. قلت لها ونحن نتجاور في الفراش:

- هل تؤمنين بحب يدوم إلى الأبد ؟

- أومن بالحب، ولكن ما هو الأبد ؟

لماذا يجعلنى ضعفي أنسى جمال هذه اللحظة وأذهب هائماً أصطاد المشاكل في أودية المجهول. انها لحظة تستحق أن أقبض عليها جيداً لكى لا تسرقها متاهة الأبد التى لا أحد يعرف لها حداً.

- إننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير في اليوم الذى نفترق فيه.

- ولماذا تفكر في الفراق ؟

هل أقول لها بأننى أخفيت عنها هويتى وأننى الرجل القادم من الصحراء الذى عينوه أميراً وزوجوه الأميرة، وأن هذه الهوية ذاتها تخفي تحتها هوية أخرى تمتد في المستقبل ألف عام. هل أبدأ بكشف هذه الرقائق من الهويات والانتماءات. ولكننى فعلاً مهموم لفراق هذه المرأة المصنوعة من أزهار الحلم، وهذه العائلة التى حققت لى تواصلاً اليفاً وحنوناً مع العائلات التى تجاورها، وعمقت

معرفتى بالمدينة التى صرت أنتمى إليها. لم أشاهد احتفالات تقام للزواج، فالعرس غالباً ما يكون جزءاً من الاحتفالات العامة التى يقيمها الناس كل يوم، يخترعون لها شتى المناسبات، ويقيمونها احتفاء بكل مظهر من مظاهر الطبيعة وعناصرها، وكل نوع من أنواع الزهور والفاكهة، وتمتد بعدد أيام العام. عرفت أيضاً أن الموت هنا لا ترافقه مآتم ومناحات، فهو في عرفهم صعود إلى السماء واتحاد بروح الكون وانتقال للمعيشة بين النجوم، ولذلك فهم يغطون موتاهم بالزهور ويدفنونهم في صمت، حيث يأخذونهم إلى منطقة خضراء يواريها الجبل يودعونهم أرضها. ولأنهم لم يصلوا إلى عصر الفواجع التى تصنعها وسائل النقل الآلية والأسلحة التى تتفجر ناراً. وأنجتهم طبيعة الحياة التى يعيشونها من هول المعارك والأوبئة والمجاعات، واختفي السباق اليومى من أجل الرزق والنفوذ، الذى يصيب القلب بالإرهاق ويصيب الروح بالانهيار، فقد صار الموت الفاجع الذى يفاجئ الانسان قبل موعد موته شيئاً نادر الحدوث. جاء والدها يسألنى إن كنت أريد أن أبعث برسالة إلى أحد الذين انتقلوا إلى رياض السماء من أهلى، لأن جاراً طاعناً في

السن ينام في فراشه استعداداً للرحيل، وسوف يزودونه برسائل إلى العالم الآخر. تذكرت قصة قرأتها عن وجود امتداد لهذه العادة في بعض مناطق العالم الذى جئت منه، وفكرت أن أذهب لأبعث برسالة إلى والدى، ولكننى تذكرت أننى أعيش في عصر سبق ميلاده، فاعتذرت عن الذهاب لزيارة الرجل المحتضر، وعدلت عن الاستفادة من خدماته.

بقيت لمدة أسبوعين أرجئ العودة إلى القصر، إلى أن وجدتهم في بداية الأسبوع الثالث يكتشفون مكانى ويعيدوننى إليه. كنت خلال هذه المدة أتجنب الذهاب إلى الساحات القريبة من القصر لكى لا ألتقى بأحد الذين يعرفوننى، كما تجنبت المرور قرب دكان الإسكافي جلال الدين، وبرغم هذه التحوطات وجدت نفسى وجهاً لوجه أمام الشيخ ذى اللحية المصبوغة بالحناء. كنت قد جئت بصحبة بدور لحضور الاحتفال بعيد الماء، فهو عيد من أعيادهم الكبيرة، يقيمونه لاحياء ذكرى عادة قديمة عندما كان أسلافهم يأتون كل عام بصبية في ثياب العرس ويقدمونها قرباناً لكائنات البحيرة مقابل ما تتيحه لهم من أسباب الرزق والمعيشة. انقرضت منذ أزمنة مضت هذه العادة، لكنهم داوموا على احياء عيد

الماء بعد أن أبدلوا الصبية بتمثال لعروس مصنوعة من الزهور. لم أعرف إلا بعد أن وصلت إلى هناك أن الأمير سوف يأتى ليقود طقوس الزفاف ويرمى بالعروس وسط الماء. كان الناس يتجمعون حول التمثال، وكانت بدور سعيدة لأنها وجدت لنا موقفاً قريباً نستطيع أن نرقب منه مراسم الاحتفال ونشاهد الأمير عن قرب. كنت محرجاً لا أدرى إن كان من واجبى أن أتقدم معرفاً بنفسى، أم أترك الحفل وأمضى، أم انتظر لأرى ماذا سيفعلون. بدأ الناس يعبرون عن استغرابهم لغياب الأمير وأردت أن أتلمس طريقاً للخروج هارباً من حرج الموقف، عندما وجدت يداً تمسك بذراعى، والإسكافي جلال الدين يسحبنى من يدى. ويسألنى أن أتولى طقوس القاء التمثال في البحيرة. أردت أن أعتذر لأننى لا أرتدى ثياب الإمارة، ولا أضع فوق رأسى جوهرة الحكم، ولكنه لم يعبأ باعتذارى، أو يبالى بالملابس التى أرتديها. ووسط دهشة الناس الذين يحيطون بى، واستغراب بدور التى كانت بجوارى ترى وتسمع ما يدور من حديث بينى وبينه، قادنى حتى أوقفنى بمحاذاة التمثال هاتفاً بصوت جهورى:

- نصر ا الأمير.

ردد الناس من خلفه الهتاف وتعالت صيحات الابتهاج وأعلن الشيخ عن بداية الاحتفال. قام بقراءة الأدعية والأوراد التى تنتهى بمقاطع يرددها معه الحاضرون تمجيداً للماء واعترافاً بفضل البحيرة والينابيع التى تغذيها، على حياة الناس. ثم امتدت الأيادى تحمل معى التمثال عالياً حتى يراه من وقف في آخر الصفوف. ووسط الغناء والأهازيج وضرب الطبول القينا بالتمثال في الماء ليبقى طافياً فوق سطح البحيرة. انتهت مراسم الاحتفال وأراد الشيخ أن يعيدنى مباشرة إلى القصر، فسألته أن يمنحنى وقتاً، لكى أشكر العائلة التى استضافتنى، ثم الحق به. كنت أحسب أن بدور ستغضب لأننى أخفيت عنها حقيقتى. أدهشنى أن أجدها سعيدة بالمفاجأة، لا تكاد تصدق أن الرجل الذى يمشى بجوارها وأقام كل هذه المدة في صحبتها، هو الرجل المبارك الذى قطع صحراء الأهوال وكافأته البلاد بتنصيبه أميراً. نقلت الخبر لوالديها بكثير من الإثارة والحماس، لاهثة تضع يدها على صدرها وكأن قلبها لا يقوى على احتمال هذه المفاجأة، قائلة لهما بأن الرجل الذى جاءهم غريباً

فاستضافوه، ليس إلا سالك الدرب، وسيد القصر، خرج متنكراً للاختلاط الحر بالناس. شكرنى الرجل وزوجته على ما منحته لهما من شرف، واعتذرا عن تقصيرهما في معاملتى معاملة تليق بصاحب الكرامات. وقفت بدور تلومنى لأننى لم أكاشفها بحقيقتى، فأضعت عليها فرصة أن تنتج علاقتنا طفلاً يأتيها عن طريقى ويرث شيئاً من أسرارى. كانت تقول هذا الكلام في حضور والديها. أدركت أن هناك أشياء كثيرة في هذه المدينة لم اتعلمها بعد. شكرت لهم جميل استضافتهم ووعدت بالعودة لزيارتهم ورجعت إلى القصر أعانق نرجس القلوب معتذراً وأجلس صامتاً انصت لعتابها. لقد ظنت أن مكروهاً لحقنى، وأرسلت المناوبين على الحراسة للبحث عنى، ولكن دون جدوى. ثم جاء الإسكافي الحكيم يستخدم لهجة أكثر غضباً في العتاب، قائلاً أن غيابى كل هذه المدة كاد أن يهدد أمن البلاد. لم أكن أفهم كيف لأمير لا يعمل شيئاً غير جنى محاصيل الفول واللوبياء، أن يكون لغيابه أو حضوره كل هذه الخطورة. أفهمنى أن وفوداً من بلاد أخرى ظلوا لمدة أسبوعين ينتظرون لقائى، حتى ذهب في ظنهم أن امتناعى عن استقبالهم يحمل دلالة سياسية،

وينبئ بموقف عدائى من أوطانهم. اقتضاه الأمر جهداً كبيراً لكى يمنعهم من السفر غاضبين، باحثاً عن شتى الأعذار لإبقائهم إلى حين عودتى. لم يشأ أن يفزع أهل المدينة فيدعو إلى انعقاد مجلس شيوخ الأحياء، الذى لا ينعقد إلا في أوقات الأزمات والشدائد، أو يبعث بالمنادين يدقون الطبول ويسألون الناس عن الأمير الغائب. لم أكن أحسب أن غيابى سيقلقهم إلى هذا الحد، وإذا كان ما ارتكبته إثماً فليقبلوا الآن طلب أعفائى من مسؤولية الإمارة لكى يتولاها واحد من أبناء المدينة، القادرين على فهم ظروفها، والحفاظ على تراثها وتاريخها أكثر منى. لتتولاها نرجس القلوب، أو ليتولاها هذا الشيخ الذى عاش عمره يحرس النظام ويحدب على استقراره. أو فليخرجوا مرة أخرى إلى الصحراء بحثاً عن تائه جديد. أما أنا فلست سوى رجل جاء من خارج الزمان وتطفل على عصر ليس عصره وأرض ليست أرضه ولم يتحرر بعد من عاهاته التى جاء بها من ذلك العصر وتلك الأرض فصار ظلماً كبيراً بحق هذه المدينة أن يبقى أميراً عليها. حاولت بلهجة لينة أن أنقل هذه الرغبة إلى الأميرة والشيخ. كنا نجتمع في الديوان وقد تعمدت أن أجلس في مقعد

بجوارهما رافضاً الجلوس على مقعد الأمير. رأيتهما يقفان وينظران نحوى باستنكار وكأننى اخترقت أكثر النواميس تقديساً وإجلالاً. استمعت إلى الشيخ يسألنى بلهجة حاسمة ألا أعود لقول هذا الكلام الذى يغضب ا . إن إرادة إلهية هى التى أنجتنى من المهالك واختارتنى دون غيرى لأداء هذه المهمة عندما أرسلتنى إلى باب المدينة بعد موت أميرها لأكون أميراً عليها، والاعتذار عن هذه المهمة أو التنازل عنها إنما هو حنث بالقسم الذى أديته ورفض للمشيئة المقدسة. في جمل حاسمة، قاطعة، أفهمنى أن تفكيراً كهذا يجب ألا يمرق بخاطرى، وأبلغنى أن الرجل الدمشقى الذى جاء موفداً من أمير السلاجقة ينتظر الآن بالباب، وأنه يجب أن أرتدى حلة الإمارة وجوهرة الحكم استعداداً لاستقباله. كان النهار قد انقضى، وكانت القاعة تنيرها أضواء القناديل. ليس الموقف مناسباً لاستقبال الضيوف والتبسط معهم في الحديث. مضى الشيخ يقول إنه إجراء استثنائى نتدارك به مزيداً من التأخير، فقد لا يصبر هؤلاء السفراء نهاراً آخر. استجيب لما أراد.

أرتدى أقنعة الأمير وأدخل في شخصيته وأجلس فوق سدته العالية. يأتى الرجل الدمشقى محملاً بهداياه من السيوف والسروج الفضية والأقمشة الدمشقية، وأسمعه يلقى رسالة الأمير السلجوقى الذى يحكم دمشق، فتراودنى فكرة عابثة بأن أخبر هذا الدمشقى بما طرأ من أحداث تاريخية على بلاد الشام بعد حكم السلاجقة، واجتياح المغول للمنطقة، وحملات الصليبيين عليها، وما يحاصر ذلك الوطن من أعداء جدد، وما حدث في فلسطين من احتلال، وفي جبال لبنان من حروب الطوائف بعد تسعمائة عام من انتهاء حكم السلاجقة، الذين انتهت دولتهم، وذهبت ريحهم إلى الأبد. لا شك أنه سيعتبرنى أميراً مارقاً، مجنوناً، يريد إهانته والسخرية من دولته، وسيعود إلى دمشق يقرع الطبول وينفخ نفير الحرب. ليهنأ الرجل الدمشقى بجهله ولأمنع نفسى من التفكير في أمر يخرج عن دائرة مهماتى، كأمير ينتمى إلى هذه المرحلة من التاريخ. استسلمت لمنطق عجلة الزمان، التى أعادتنى إلى هذا العصر السلجوقى، مشيداً بدمشق وعراقة تاريخها، ومكانة الأمة التى تنتمى إليها بين الأمم، والانتصارات التى حققها السلاجقة على ملوك بيزنطة وأمرائها، معتذراً عن

تأخرى في استقباله كل هذه المدة بسبب الاستشفاء في المياه الكبريتية بعيداً عن هذا القصر. مجزياً له العطاء من ثمار المرجان هدية لأميره ومدينته. بقيت في صحبته زمناً، استمع منه إلى أخبار تلك البلاد، وما تنعم به من ازدهار واستقرار، في عهد ملك شاه الذى يرعى العلوم والفنون. استقبلت بعده مندوباً من بلاد السند، جاء محملاً بأعواد البخور والتوابل والعطور والتحف والتماثيل العاجية، واستمعت إلى تقارير المناوبين على الحراسة، وحضرت مراسم التسليم والتسلم بينهم. أنجزت ما تريده الإمارة من أعمال، وعدت إلى امرأتى أصالحها مصالحة العشاق، بعد أن صالحتها مصالحة الأمير للأميرة، وأعاهدها، وأنا أحتوى جسمها وأغتسل بشذا عطرها بألا أسبب لها كدراً أو ضيقاً. انهمكت مرة ثانية في روتين القصر. حياة بلا أعباء، وقصر لا يشبه قصور الحكم الأخرى التى قرأت عنها في قصص التاريخ، والتى تمتلئ بالجوارى والخدم ورجال ونساء البلاط، حيث تحاك المكائد والدسائس وتنشأ الصراعات على الحكم والنفوذ. قصر يسكنه أيضاً عمال الحدائق والبساتين، الذين يشرفون في المناسبات على حفلاته، ويتناوبون معنا على صيانته ونظافته والعمل

في مطبخه الذى يتولى إعداد الطعام لكل ساكنيه. أصحو مبكراً لأداء التمارين الروحية، وأنتهى من ساعات العمل في البستان، فأذهب إلى الديوان، ويأتى المساء فأخرج متنزهاً مع الأميرة التى اكملت زينتها، وارتدت أبهى حليها، واستعدت لاستقبال الحفاوة التى تلقاها من أهل مدينتها. لم أكن قد قررت أن أخبرها بالعلاقة التى أنشأتها مع بدور، لأننى لا أعرف ما يعنيه ذلك لها، أو ماذا سيكون رد فعلها، تعاملت بذات المنطق الذى تعلمته قبل وصولى إلى هذه المدينة. قلت لها كل شىء عن العائلة التى استضافتنى، وما قمت به من نزهات معها، وما التقيت به من عائلات تجاورها، مبدياً إعجابى بتلك الروح التى جعلت أناساً لا يعرفوننى يفتحون لى بيتهم وكأننى ابن غائب عاد إليهم. قلت لها كل ذلك دون أن أذكر شيئاً عن ابنتهما. أخبرتنى نرجس القلوب أن ما فعلته معى هذه العائلة هو ما كانت ستفعله أية عائلة أخرى، لأن هذه هى تقاليد المدينة. إن بيوت الناس جميعها مفتوحة لاستقبال الضيوف، وباستطاعة أى إنسان تأخر به الوقت أثناء العمل بالحقول، أو مقالع الحجارة، أو عند ذهابه إلى الغابة، أو فاجأته الأمطار أثناء النهار، وأراد سقفاً وطعاماً،

أن يطرق باب أقرب بيت ليجد أهله يرحبون به. لم أقل لها أن ما حصلت عليه من تلك الضيافة كان أكثر من مجرد النوم والطعام والصداقة. وجدت حباً لا أدرى أن كان باستطاعتى أن أنساه، لأن المرأة التى التقيت بها لم تكن امرأة عادية نلتقى بمثلها كل يوم، أنها المرأة الاستثناء التى جاءت مطابقة لامرأة ترقد صورتها في قاع الذاكرة. لم أقل ذلك لنرجس القلوب ولن أقوله، ذهبت متجولاً معها أضم إلى قلبى كل ما أراه من مظاهر الحياة في المدينة ومشاهدها. صرت الآن أكثر خبرة بها، وعرفت خلال الأيام التى قضيتها أتجول متحرراً من كل التزام عبر بيوتها وأزقتها، كيف يصبح الحب وجوداً مادياً مثل غلالة رقيقة تغطى الناس والبيوت، حضوراً شفافاً زاهياً ألمسه وأحسه وأستنشقه مع الهواء كالعبير. تحرر القلب من وطأة الحاجة واختفي البغض والطمع، وبقى الحب الذى يجمع كل الناس ويغلف كل الناس. وما علاقة الحب التى تنشأ بين الرجال والنساء إلا جزء من هذه العلاقة التى تربط بين الإنسان والإنسان، بمثل ما تربط بينه وبين الطبيعة، وبصدق وبساطة وعفوية تأتى العلاقة الجنسية باعتبارها استجابة لهذا القانون، انها ليست مجرد

تحرير للطاقة الغريزية الفاعلة في وعى ولا وعى الإنسان، ورفع الأغطية عن أبخرتها ذات القدرة التدميرية لو ظلت محبوسة، مكبوتة، وإنما مصدر من مصادر السعادة التى يحرص الناس على اغترافها لا بحواسهم الخمس فقط وإنما بحاسة سادسة مصنوعة من الشفافية والتربية الروحية وثراء العوالم الداخلية، فيصير الجنس شوقاً وعشقاً ومعانقة لمعنى الحياة وسر الوجود. فلماذا أبدو الآن مليئاً بالاثم، متحرجاً من هذه العلاقة الحميمة المباركة التى ربطتنى لأيام قليلة بصبية مصنوعة من رغوة الحلم. سوف لن أخبر نرجس القلوب بما حدث، ولا أظن أن أحداً من أهل المدينة سيفعل ما فعلت أو يراه بريئاً كما أراه. إننى أحتكم إلى مقاييس تختلف عن مقاييسهم، ونشأت في بيئة تختلف عن بيئتهم، وجئت إليهم أحمل سلوكيات تتباين مع سلوكياتهم، واختزن في دمى كبتاً قديماً وجوعاً لم يعرفه رجال مدينتهم ،. ما أدهشنى أن بدور لم تشعر بالحرج عندما عرفت من أكون، ولم تعتبر نومها مع رجل متزوج إثماً. فهل كانت تستند إلى تقليد يبيح هذه العلاقة ؟. أم أنها كانت تفعل ذلك لأنها لم تكن تملك ارتباطاً كارتباطى. وإذا كان ما فعلته إثماً فهو اثمى أنا وليس اثمها.

ولكن ما هو ذلك العنصر الغريب لديها الذى يفتننى ويغوينى ولا أستطيع أن أنساه حتى وأنا في أحضان امرأة لها جمال نرجس القلوب وثراء عوالمها. جئت إلى هذه المدينة طائراً غريباً خرج يغرد خارج سربه، فبسطت لى هذه الأميرة كفاً يحمل ماء وطعاماً وحناناً، منحتنى منذ الليلة الأولى مفاتيح قلبها، وارتضتنى زوجاً استجابة لتقاليد مدينتها، وأشعت سناء أضاء دروب رحلتى الغريبة. ولكنها قبل كل شيء الأميرة التى تضع قلبها حيث مصلحة بلادها. تلقت تربية ملكية تتجلى في كل جزء من شخصيتها وسلوكها وحديثها. إنها لا تستطيع أن تتخلى لحظة واحدة عن هذه الشخصية حتى وهى تحب وتتزوج. وتظل هذه الشخصية الأميرية حاضرة متألقة حتى وهى تختلط بالناس في الأسواق والميادين والاحتفالات التى تقام في الهواء الطلق. تفعل ذلك كله وهى واعية بكونها الأميرة التى ينظر إليها الناس بإعجاب وإكبار، حريصة على زينتها، وجمال مظهرها، مدركة أن الناس وهم يلتقون بها سوف يخبرون أهلهم وأصحابهم بهذا اللقاء، ويصفون لهم ماذا قالت، وكيف ابتسمت، ويتحدثون عن الثوب الذى ترتديه، والعطور التى تستعملها، والطريقة التى صففت بها

شعرها، وقد تسعى بعض الفتيات إلى تقليدها ومجاراتها في اللباس وتمشيط الشعر. ولذلك فهى دائماً حريصة على الصورة التى يراها بها الناس. مؤمنة بأنها ترسى بسلوكها مثلاً وقدوة، وتسهم في تنمية الذوق، وتعميق الحس الجمالى لدى أهل مدينتها. وهى لا تفعل ذلك تصنعاً وافتعالاً، وإنما استجابة للجذور التربوية وسنوات التكوين الأولى التى أعدتها لهذا الدور وجعلت احساسها بالواجب يبلغ هذا الحد. ولا شك أن لذلك كله دخلاً في موافقتها على الزواج بى وإحاطتى بحبها ودفء عواطفها، فهو سلوك نابع من داخلها وعمق قناعتها برسالة أميرة مثلها. حتى داخل غرف الجناح الذى يضمنا بعيداً عن أعين الآخرين لا تستطيع إلا أن تكون مثالاً لهذا السلوك الأميرى، تهتم بأناقتها، وتعتنى بتنظيم زهورها وكأنها تقيم معرضاً للزهور، وتجعل لساعات الطعام والنوم والراحة والعمل مواعيدها وطقوسها. وأنا لا أضيق بذلك كله، ولا أجد فيه قيداً على حريتى، فهى تفعل كل ما تفعله بيسر وعفوية، وتتنبهنى إلى ما ينبغى القيام به بأسلوب بالغ لرهافة والعذوبة. ومع ذلك كله أحس أحياناً بالحنين إلى حياة الانطلاق التى جربتها بعيداً عن القصر، فوجدتها أكثر

ملاءمة لطبيعتى التى لم تتنشأ نشأة ملكية، وإنما تربت تربية حرة داخل الأحياء الفقيرة، فصادفت الحياة التى عشتها مع بدور هوى في نفسى. نحتسى قارورة نبيذ في الخلاء دون أن نستخدم الكؤوس، ونشوى سمكاً أو ذرة في مواقد النار دون أن نقيم اعتباراً لمواعيد الطعام. نتسلق الجبال حتى تتمزق أرديتنا ونغترف ماء الينابيع بأيدينا ونرتوى منه، ونتعرى كى نسبح في المياه الجبلية دون احساس بالحرج. وفي حين كانت بدور تعبيراً عن روح المدينة في انطلاقها وتحررها وحبها للحياة وعشقها للجبال والبحيرات والفراشات والأزهار الوحشية التى تنبت بين الصخور، فإن نرجس القلوب بعراقتها ونبل مظهرها ومسلكها وتقديسها للتقاليد التى تحفظ للمدينة نظامها، تبدو وكأنها جوهرة أتقن الصاغة صناعتها وترصيعها بفصوص الأحجار الكريمة. إننى أحب ما ألقاه من بذخ وتوهج وثراء في شخصيتها، ويجب أن أكون شاكراً لهذه القوى التى أوصلتنى إليها، ولكن شخصاً آخر بداخلى، لم يستوعب تقاليد القصور ولم يتدفأ صغيراً بأقمطة الأمراء ما زال يملأه التوق إلى تسلق الروابى بصحبة امرأة رأى فيها تجسيداً لفورة الطبيعة في أكثر دوراتها خصوبة وعنفاً.

وزاد من إذكاء هذا التوق إدراكى أن الإمارة قدر لا فكاك منه ولا هروب، كرهت ذلك أم أحببت، شئت أم أبيت. لعلنى لو لم اكتشف هذه الحقيقة لكنت أكثر استمتاعاً بها ورغبة فيها ولكننى الآن صرت أحس بعبء مسئوليتها، وأجد نفسى أحياناً متلبساً باستمراء أفكار وخواطر سرعان ما أطردها من رأسى، وهى أن أقوم بعمل ينفرهم منى، أن أكون سبباً في تأزم علاقتهم مع دولة أخرى، أن أمارس شيئاً يتنافي مع تقاليد مدينتهم، ويسىء إلى نظامها، حتى أجعلهم مرغمين على القبول بإعفائى من هذه المهمة. وكنت أطرد هذه الأفكار خشية أن يتحول هذا اللعب إلى كارثة تدمر المدينة، وأشعر بالذعر من ذلك الكائن الذى تلوث بهواء القرن العشرين، واقتات أربعين عاماً على موائده، وأخشى أن ينتصر في نفسى، ويفلح في تقويض هذا البناء المصنوع من مادة مخملية بالغة الرهافة والحساسية.

لم أكن قد تجاوزت في جولاتى مركز المدينة وأحوازها وضياعها القريبة، ولم أكن طوال هذه المدة قد خرجت إلى الغابة التى ترتمى خلف الجبل، حتى جاءت نرجس القلوب تقترح أن نعيد إحياء تقاليد رحلة الصيد التى

يقوم بها الأمير مرة كل أسبوعين إلى الغابة، فقد تعطل هذا التقليد منذ رحيل الأمير السابق، ولأننى أجهل هذه الرياضة، فقد اقتضى الأمر أن أتلقى تدريباً ومراناً ودروساً في الرماية وركوب الخيل على أيدى الرجال المشتغلين بالصيد. وجاء بعد أيام موعد أول رحلة صيد أقوم بها. كان افتتاح الموسم مناسبة للاحتفال والمواكب الرسمية، احتشد في باحة القصر عدد من راكبى الجياد وحاملى السهام والرماح والحراب الذين جاءوا بكلاب الصيد وصقوره. جلست فوق الجواد انتظر بداية المسير، وارتدى لباس الصيد المصنوع من جلود الحيوانات، وأملأ كنانتى بالسهام، وأحمل على كتفي قوس الرماية، وبجوارى نرجس القلوب تمتطى جواداً تداعب عنقه، وتربت على كتفيه، وتبتسم لى مشجعة وهى ترانى أتهيب هذه المغامرة. وجاء فريق من ضاربى الطبول، يتقدمون موكبنا، ونحن نباشر رحلتنا، ونجتاز شوارع المدينة، ثم نمرق عبر الحقول، حتى نصل إلى بيت عند سفح الجبل، قريباً من الشلالات، يستعملونه استراحة ومخزناً لحاجيات الصيد. تزود الموكب بالمؤن وأوانى الطبخ وقرب الماء، وانضم إلى ركبنا عدد آخر من أهل المدينة ممن

جاءوا للمشاركة في الرحلة. توقف ضاربو الطبول عن مصاحبتنا، وانطلقت الجياد تجتاز بنا شعباً وممرات جبلية كثيرة الوعورة، ترتفع وتنخفض، تصعد بنا حيناً وتهبط حيناً، حتى توغلنا في الجزء المنبسط من الغابة الذى اختاروه مكاناً للصيد هذه المرة. لم تكن الغابة سوى حديقة حيوانات طبيعية بما فيها من غزلان ووعول وأرانب وثعالب، وما تمتلئ به أشجارها من طيور وأعشاش، وما يتسلق جذوعها وأغصانها من قرود، وما يسكن بحيراتها الصغيرة من أفراس البحر، وما يقفز من حقاف أرضها من سحالى وسناجب وجرذان. لم يكن يهمنى كثيراً أن أبدى براعة في الرماية، ولكن الصيادين الذين يرافقوننى، ويشرفون على تدريبى، كانوا يبدون حماساً كبيراً لتشجيعى، وكنت أرى الواحد منهم يراقبنى وأنا أرمى سهماً باتجاه أرنب هارب. يذهب السهم طائشاً ولكن الأرنب يسقط مصاباً. أعرف أن سهماً غير سهمى أصابه، برغم ما بدا للآخرين من أننى أنا الذى أصبته. ولأنها أول رحلة صيد يأخذوننى إليها، فقد اختاروا البقاء في هذا الطرف من الغابة، ولم يتوغلوا عميقاً في أدغالها البعيدة. إن وحوشاً أكثر شراسة وافتراساً، مثل النمور والأسود والفهود والضباع

والذئاب التى نسمع أحياناً زئيرها وعواءها، تسكن تلك المناطق الكثيفة التى تتحول فها الأشجار إلى جدار لا يقدر على اختراقه إلا أهل الحرفة. اعتبرناه يوم نزهة واستمتاع بالطبيعة. أشعلنا ناراً، وقمنا بطهى وشواء العديد من الفرائس التى اصطدناها. لم أكتف بمتعة الصيد، وإنما وجدت متعة أخرى في الإنصات إلى هذا النشيد الصاخب الذى تعزفه الطيور، واكتشاف أنواع منها لها ريش ملون وتيجان مخضبة ومناقير حمراء، والعثور على نباتات ذات براعم تضيء كالفوسفور، وزهور تختلط في أوراق الواحدة منها كل ألوان الطيف، وأنواع متوحشة من الفطريات ذات أحجام بالغة الضخامة، وكانت أشجار البلوط قد ابتنت لنفسها قصراً في الغابة، حيث تشابكت أعرافها بمثل ما تشابكت عروقها النافرة فوق الأرض تصنع ردهات وأروقة. عدنا في المساء من رحلتنا ونزلنا عند الاستراحة نتقاسم أقداح النبيذ، شكرت الصيادين على ما بذلوه من جهد في تلقينى أسرار مهنتهم، وعدت مع الأميرة إلى القصر، وقد أصبح الذهاب إلى الصيد موعداً انتظر بلهفة مجيئه، وأرى أنه أدخل نكهة جديدة على حياتى، وأضاف إليها شيئاً من الإثارة والمغامرة والانطلاق،

أكسر به رتابة الروتين اليومى. لم تعد رحلة الصيد تقتضى المواكب والاحتفالات والطبول، كما هو الحال في المرة الأولى. إنه يوم للراحة والنزهة والرياضة. يأتى موعده فأذهب مع الأميرة إلى الاستراحة، حيث نحتفظ هناك بعدة الصيد وسلاحه ولباسه، ونلتقى بعدد من الصيادين الذين يصطحبون الكلاب والصقور وطيور الباز المدربة على مطاردة الفرائس. نمضى معهم سعداء بما يتيحه الرحيل في الغابة من اتصال بالطبيعة في أكثر أطوارها بدائية، وأكثر مناطقها بكارة، وقد جاء الصيف ينضج ثمار أشجارها، ويضيف ألواناً أخرى إلى ألوانها، وتتحرر بعض الطيور من ريشها القديم، فيتناثر فوق أرض الغابة وكأنه بديل لزهور الربيع التى انقضى أوانها. وأرى نرجس القلوب لا تتخلى عن سمت الأميرة ومظهرها، فأسألها أحياناً أن تنسى أنها الأميرة لكى تستطيع أن تنطلق على سجيتها. كنت في الحقيقة أعبر بذلك عن أمنية سرية، وهى أن أرى بدور قد حلت في شخصية الأميرة، وأضافت إليها شيئاً من روحها المنطلقة الهازئة بالتقاليد. سيعفينى ذلك من عناء هذه العواطف

المتصارعة في صدرى نحو المرأتين. ولكن الأميرة تضحك قائلة:

- هكذا خلقت ونشأت، ولم يعد بإمكانى أن استبدل أبى وأمى.

قلت في خاطرى، ولكن أمى لم تكن إلا امرأة جاهلة فقيرة تحترف البكاء، وأبى قضى عمره ماشياً فوق حقول الألغام، فبأى حق أسأل هذه الأميرة أن تكون مثلى.

- معذرة لأننى لم أصنع من القماشة التى صنع منها الأمراء.

تظننى الأميرة أشكو ماضياً لا تعرفه، فتعيدنى إلى بهاء اللحظة التى أعيشها، وأنا أجلس معها في غرفة نوم تغطيها أجنحة الملائكة، وتقول بلهجة عتاب حانية وحنونة:

- ألست سعيداً ؟

نعم، هذا هو جوهر القضية. كيف أجرؤ على القول بأننى لست سعيداً وأنا الذى طرحت خلفي عالماً مسقوفاً بالأجنحة السوداء ونفذت إلى مدينة تشبه غمامة من العطر. إننى أكثر سكان هذه المدينة قدره على رؤية النور الذى أشرق فوق جباه مبانيها، لأننى عرفت ما يناقضها، ورأيت

مدن الرماد والقصدير التى جئت هارباً منها، ولذلك فإننى لا أستطيع إلا أن أكون سعيداً، وما الصحبة التى تقدمها لى أميرة مضيئة، وشهية مثلها إلا بهجة دائمة ورحيق يرتشف منه القلب ولا يرتوى، حتى السويعات التى أقضيها عاملاً زراعياً يغرس المشاتل ويجنى المحاصيل، تحولت إلى نزهة أتشوق إليها، لأننى تعلمت كيف أن الأزهار في بواكير الصباح، تكون أكثر قدرة على نفح اريجها، الذى يصنع خيمة من العطر تظللنى. وإذا ما مارست عواطفي ترفاً في التخير بين هذه الأميرة الناعمة كأوراق نرجسة مغموسة في الندى، وبين صبية أخرى لها انطلاق الوعول وحبها للركض في حدائق الفجر، فما ذلك إلا لأننى أحمل نهماً للاغتراف من ينابيع النور والفتنه التى أضنانى الرحيل إليها، وأجد في الارتواء منها، تعويضاً لكل سنوات الإمحال والمسغبة. قلت لها بأن الحياة معهم ليست إلا نزهة عبر حقول الفرح. وإذا كانت كتب الحكمة تقول بأنه لا سعيد في مدينة الأشقياء، فإننى لا أتصور أن يكون الإنسان حزيناً وسط بشر سعداء. إننى سعيد وأريدها أن تكون هى أيضاً سعيدة، متألقة على الدوام، مثل نجمة تضىء السماء.

- إذن ما رأيك في أن أمنحك سبباً آخر للسعادة ؟.

- كما أن البحر لا يكره المزيد من الماء، فالقلب لا يكره المزيد من السعادة.

- ستصير قريباً أباً.

- هل حقاً ما تقولين ؟

- نعم فأنا حبلى منذ أسبوع مضى، ولم أشأ أن أخبرك قبل أن أرى الطبيب حسان، وأتأكد من ذلك.

- وهل تقضى التقاليد بإرسال المنادين لإخبار الناس ؟

- ليس قبل خروج المولود إلى الحياة.

مولود في قصر الأمير. سعيدة هى بالجنين الذى يتكون في بطنها، ومن واجبى أن أكون سعيداً مثلها. بقيت ساهماً لا أضيف شيئاً. استمعت إليها بمثل ما أستمع إلى أية امرأة أخرى تتحدث عن طفل سوف تنجبه، وتلقيت الخبر بمشاعر حيادية، ليس فيها فرح أو حزن. إننى أحتاج إلى بعض الوقت لكى أستوعب هذا الخبر، وأبحث في ذاكرتى عما يعنيه أن يكون لى طفل في مدينة عقد المر جان. إننى أعيش هنا بإحساس من يعيش حياة مؤقتة، حياة رجل طارئ على هذه المدينة. ها أنا أصبح فيها أباً لطفل يسبق ميلاده

ميلادى، ويسبق تاريخه تاريخى، مفارقة تضاف إلى مفارقات هذه الرحلة. طفل يؤسسنى ويصنع لى جذوراً ويجعل انتمائى الطارئ انتماء ثابتاً وأصيلاً. طفل يولد في قصر أميرى. لن يقول ما قلته أنا عن أصلى وقماشتى التى لم تصنع من قماشة الأمراء. وبمثل ما جاءنى في سنوات العمر الماضية طفل وهبته لوطن ليس وطنى، فها أنذا أجد نفسى مرة أخرى أباً لطفل أهبه لهذا العصر، وهذه المدينة التى سقطت في جيب من جيوب الزمن فما عادت تعبأ بتقادم العصور، في حين لم أفلح في انجاب طفل في وطنى وبين من يعتبرهم الناس أهلى حتى اعتقدوا بعقمى فلم يعد أحد ينتظر ذرية تحمل اسمى، وتصنع لى امتداداً في الزمن الآتى. هل أستطيع أن أفرح الآن بمجىء هذا الطفل؟ وهل ترانى سأبقى مقيماً في هذه المدينة حتى أراه يظهر للوجود، وأستمتع بمراقبته وهو ينمو ويدرج فوق الأرض، واستمع إلى أولى الكلمات التى يقولها، وأزهو به ينادينى بأبيه. هل ستبقى هذه المدينة حلماً لا يتبخر في الهواء، ولا يلحقها ما يلحق الأحلام من التلاشى والذوبان؟ علمتنى بعض أيام العمر أن الأشياء الجميلة لا تدوم، فهل حقاً ستدوم أيام هذه النعمة. نظرت إلى نرجس

القلوب فرأيت وجهها يطفح بالسعادة، غارقة في أحلام امرأة تكتشف الآن أمومتها، مرحلة أخرى لا بد أنها أكثر إثارة من تلك المرحلة الأولى التى تكتشف فيها المرأة أنوثتها. تذكرت أن المواليد في بيوت الأمراء ليسوا كمواليد البيوت الأخرى. إن ألف ليلة وليلة عامرة بالحكايات التى تتحدث عن عذاب الملوك والأمراء الذين يحرمون من الإنجاب فينسون مباهج الحكم ويصرفون وقتهم في البحث عن علاج للعقم والجرى وراء السحرة والمنجمين وإرسال المبعوثين إلى أقاصى الأرض طلباً لمعجزة تمنحهم الخصوبة والولد. وها قد تحقق لى هذا المطلب دونما عناء، وجاءنى الطفل الذى يحفظ في المدينة ذكرى ويكون أميراً من بعدى بحسب ما تقتضيه تقاليد الحكم التى تتيح هذا الحق لابن الرجل القادم من الصحراء باعتبار أنه سيرث شيئاً من أسرار وكرامات أبيه، فإذا انتهى عهده، سقط هذا الحق عن أبنائه، وخرج أهل المدينة إلى الصحراء بانتظار رجل من أهل ا ، يجدد تواصلهم مع عالم الأسرار وقوة الروح. فكيف لا أكون سعيداً سعادة أولئك الملوك بأبنائهم. إنها إمارة لم أطلبها، وحكماً لم أؤسسه بالحروب والفتوحات التى يؤسس بها الملوك حكماً يورثونه

لأبنائهم، ولكن سعادتى بالطفل لا يجب أن تكون لمجرد أنه ولد في قصر الأمير، إنه ابنى، ومن حقى وواجبى أن أسعد به كما يسعد الآباء بأبنائهم بمعزل عن أى اعتبار آخر. رأتنى الأميرة غرقاً في التفكير فسألتنى عما يشغلنى.

- أفكر بالاسم الذى نسمى به طفلنا، سأقترح له اسماً إن كان ولداً، وتقترحين أنت الاسم إن كان بنتاً.

- وهل وجدت اسماً مناسباً ؟

- سأسميه باسمى الذى ضاع تحت الألقاب الأميرية، خليل. وماذا عن أسماء البنات ؟

- سأختار لها اسماً من أسماء الزهور.

- نعم. اسماً يشبه اسمك، ويكون لائقاً بها كما كان النرجس لائقاً بك.

عدت مرة أخرى إلى التفكير وعادت هى إلى السؤال.

- انتهينا من الاسم فما الذى يشغل بالك ؟

- تشغله هذه المفارقات التى تجعل من رجل عاش فقيراً مثل والدى ينجب سلالة من الأمراء يولدون قبل عصره.

لم يعد الحديث عن العصر الذى جئت منه يفزعها، بعد أن أقنعها جلال الدين بتفسيراته. وضاحكة من هذا الحديث المتكرر عن أصلى المتواضع، أخبرتنى بأنها أيضاً تنتمى في أصولها إلى أسرة بسيطة أكثر فقراً من أسرتى. وهى وإن ولدت في هذا القصر لأب ورث الإمارة، إلا أن جدها لم يكن إلا رجلاً صوفياً من فقراء الناس يجوب الآفاق بأسماله البالية، يتلو تسابيحه، ويهيم مع تأملاته، يبشر برسالة المحبة والتجلى الالهى وحلول الخالق في المخلوق ووحدة الجوهر المؤسس لكل العقائد الدينية. خرج هارباً، مطارداً من أمير بلاده، الذى أرسل وراءه الجلاوزة والسيافين بغية قتله، ولجأ إلى صحراء الأخاديد السود وطيور الافتراس وثعابين النار. جاءوا يطاردونه في الصحراء، فكان مصيرهم الهلاك، ومصيره النجاة، وبقى عاماً كاملاً تائهاً في تلك البيداء، يتغذى بحشائش الأرض، حتى وصل منهكاً، مريضاً، إلى أبواب هذه المدينة، بعد أشهر من وفاة أميرها. كان رافضاً للإمارة، ولكنه عندما وجد أنها التزام لا مناص منه ولا يتعارض مع ما يريده لنفسه من نسك وزهد وتصوف، مضى في الإصلاح وهداية الناس. كان أهل المدينة مازالوا في ذلك

الوقت يعبدون القمر باعتباره رمزاً للنور والخلاص وتجلياً لجمال إله الكون ومبدعه، فصرف جهده من أجل هدايتهم إلى ا واقناعهم بالاتجاه إليه فهو رب القمر والشمس والنجوم وما حوى الكون من ظلمة وضياء وأرض وسماء. وهو الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء، وليس بجسم ولا صورة ولا جوهر ولا عرض. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، لا يبصر نوره إلا من نظر في نفسه وكان قادراً على استخلاص الحكمة من وجوده والاهتداء إلى الشعلة الإلهية في ذاته. كانوا يقيمون الصلاة للقمر وينشئون الأديرة لعبادته، فتحولت تلك الأديرة إلى مدارس ومصحات للعلاج. كان رجلاً صاحب كشف وإشراقات وتجليات، يؤمن بوحدة الوجود وروح ا المبثوثة في كل مظاهر الحياة وعناصر الطبيعة، ويرى أن العبادة ليست إلا حب الذات الإلهية ومعرفة الحقيقة العليا، وكان مسلماً يؤمن بوحدة الأديان، فعلّمهم أن الأديان مختلفة في ظاهرها متفقة في جوهرها، تصدر عن تصور واحد وتتجه إلى إله واحد. وحبب إليهم القيام بتلك الرياضة الروحية التى يؤدونها مع تلاوة سورة الفاتحة كل صباح. آمن به الناس وأحبوه واعتبروه نبياً لكنه

حارب هذه الفكرة، ومنعهم من ذكر اسمه بهذه الصفة، أو التبرك به، أو منحه القاباً غير اللقب الذى يسمون به كل أمير جاء عن طريق الصحراء وهو سالك الدرب. وعندما مات بعد أن عاش طويلاً، دفن في مكان مجهول حسب وصيته، لكى لا يبقى قبره مزاراً يشغل الناس عن الاهتمام بأنفسهم، والبحث عن الحقيقة في أعماق ذاتهم. انقرضت ديانة القمر وتحولت إلى تراث شعبى، وظل أهل المدينة يحتفظون بأكبر احتفالاتهم لأعياد القمر ويكثرون من الغناء حوله والقيام بالرقصات الاحتفالية والطقوسية عند اكتمال استدارته، كما تكثر الأساطير التى تدور حلو عوالمه والكائنات التى تسكنه، ويتفاءلون بمنظره عندما يقترب من الأرض ويعتبرون ذلك فألاً طيباً ووقتاً ملائماً للإخصاب. لم أقل للأميرة أن القمر ليس كوكباً مضيئاً يضج بالكائنات الجميلة كما يظنون، وأننى شخصياً شاهدت من خلال الصور المنقولة عبر الأقمار الصناعية بشراً من أبناء عالمنا يسافرون إليه ويمشون فوقه وهم يتنفسون هواء معبأ في علب يحملونها معهم لأن القمر ليس إلا كوكباً منطفئاً مظلماً خالياً من الحياة، لا هواء فيه ولا ماء وإنما أرض بركانية قاتمة السواد. لم أقل لها ذلك لأننى

أعرف أن كلاماً مثل هذا سوف يفزعها، وقد تخرج هاربة موقنة بجنونى. ثم من قال أن القمر الأسود الذى زارته مراكب الفضاء، يجب أن يكون نفياً وإلغاء للقمر الذى نراه من فوق الأرض مضيئاً وجميلاً، عامراً بالأطياف والرؤى. سوف لن أضيف شيئاً يثرى حياتهم بمثل هذا الحديث، وإذا كان الرجل الصوفي الذى جاء تائهاً مثلى قد استطاع أن يهديهم إلى نور ا ، فلأترك أنا هذا الهذيان عن العصر الذى جئت منه طالما أننى لا أستطيع أن أضيف بهاء إلى هذا البهاء.

قلت للأميرة متسائلاً:

- ماذا لو حمل الطريق الصحراوى مجرماً أو مجنوناً، فهل كنت ستقبلون به أميراً ؟

- لا أحد يستطيع أن يجتاز تلك الصحراء إلا رجل وصل مرحلة الشفافية نقاء وصفاء، وسرى فوق الأرض مثل الصوت والضوء والهواء.

ولكننى وعاء مثقل بالخطايا، ومملوء بكثافة زمن عمره ألف عام، فكيف تحررت من طبيعتى الترابية ونفذت مثل الضوء إلى مدينتهم. إنهم يثقون بحكمة الأقدار، فلماذا لا

أثق أنا أيضاً بحكمتها، التى طفت بى فوق الأخاديد وأودية الجن.

صار على نرجس القلوب منذ هذا التاريخ أن تتبع نظاماً يختلف عن نظام حياتها قبل الحمل. تحررت شيئاً فشيئاً من واجب العمل بحدائق الورد، أو مرافقتى أثناء الزيارات وحضور الاحتفالات والمراسم. وجاءت امرأة تعمل بالتمريض ترافقها طوال الوقت وتعتنى بإعداد الطعام الذى يناسبها، كما جاء الحكيم حسان يعالج بأعشابه ما يلم بها من أمراض الوحم، ويتابع نمو الجنين تحسباً لأية أعراض طارئة.

توقفت أيضاً رحلات الصيد تجنباً لمستنقعات الغابة وأرضها الرخوة الموحلة، بعد أن بدأ الخريف يرسل أولى أمطاره التى تصنع غدراناً تملأ الطرق الجبلية المؤدية إليها، وبذلك حرمت من هذه الرياضة التى كانت تمنح أيامى لوناً جديداً مغايراً. صرت أذهب بمفردى إلى حضور الاحتفالات وملاقاة الناس في أعيادهم المسائية، وأبحث عن الإسكافي جلال الدين في دكانه لكى يرافقنى فأجده غائباً، وأعرف

حينئذ أنه صار يصرف أغلب وقته مع الحرفيين، سعياً وراء آلة يستعيرها من منجزات القرن العشرين.

قلت له أثناء زيارته إلى القصر، ونحن نجلس بإحدى الشرفات المطلة على ركن تأوى إليه الطواويس:

- لماذا تخليتم عن شعار له كل هذا الجمال والبهاء ؟

- لأن مظاهر الأشياء لا تكون بديلاً عن الجوهر فإلى ذاك الجوهر يجب أن تتجه العقول والقلوب والأبصار.

- إذن فقد كان ذلك جزءاً من التحول عن العبادات والشعائر القديمة.

- كان جزءاً من التحول عن الانشغال بالخارج إلى الانشغال بالداخل. من البحث عن النور والحقيقة والبهاء خارج الإنسان، إلى البحث عن هذه القيم والمعانى داخل الإنسان.

- أليس الشعار رابطة يتوحد حولها الناس ؟

- وما حاجة هؤلاء الناس إلى شعار طالما اهتدوا إلى وشائج أكثر عمقاً، تكمن في نفوسهم، وتربط بينهم.

رأيت أنه وقت مناسب لأن أسأله عن هذه المهنة التى أختارها، فقد بدا غريباً أن يكون الرجل الذى كرس حياته

لاغناء العقول وتقديم المشورة للأمراء وتربية أبنائهم، صاحب مهنة تهتم بأقدام الناس ونعالهم.

- إنك تعمل بالتوجيه والتربية وشؤون السياسة، فلماذا صنع الأحذية ؟

- إنها حرفة لم أخترها وإنما تعلمتها عن والدى، الذى تعلمها عن والده، فصرت أشغل بها وقتى، وأنتج بها شيئاً ينفع الناس، وأسدد به دينى لهم، فاليد العاطلة لا يحبها ا .

نعم، قلت لنفسى، أن الإنسان يحتاج إلى حذاء يضع قدمه فيه قبل أن يذهب إلى المدرسة، فالأولوية للحذاء.

- إنك لم تر المشغل الذى يعمل به الحرفيون.

لا بد أن صنع الأحذية أتعبه وأضناه فأراد أن يصنع للناس وسيلة أخرى يستخدمونها في السير غير نعالهم. إنها ليست المرة الأولى التى يدعوننى فيها إلى زيارة المشغل ولكننى لم أشأ أن أسمح له بتوريطى في قضية أعرف مسبقاً أنها لن تثمر شيئاً ذا جدوى.

- إنهم يعملون بهمة عالية. تفشل تجربة فيبدءون بغيرها دون أن ينال ذلك من عزيمتهم.

لم أقل له أن نتائج عملهم بدأت تظهر واضحة لكل أهل المدينة، فثمة قناطر تحتاج إلى ترميم لم يعد هناك من يرممها، وأبنية انتهى البناءون من اشادتها لم تجد من يصنع لها الشبابيك والأبواب وشبكات الماء، فظلت ناقصة لا يستطيع أحد أن يسكنها بعد أن تفرغ هؤلاء المهنيون لمشروعه الوهمي.

- تعلم أنني منذ البداية لم أكن متفائلاً.
- لن نخسر شيئاً بالمحاولة.
- ولن نستفيد شيئاً.

رأيته صامتاً ينظر إلى طاووس نفش ذيله وذهب يخاصم طاووساً اخر، فأدركت أنه لم يسترح لكلماتي. صار المشروع حلماً لاصقاً بقلبه لصوق الأهداب بالعين ولن يتخلى عنه حتى لو تقوضت كل أبنية المدينة دون أن تجد من يصلحها. بهره العالم الذي أخبرته عنه فصار مهووساً بما يمكن أن يحققه العقل البشري من إنجاز، وسعى لأن يقدم شيئاً جديداً يضيفه إلى مكتسبات هذه المدينة التي يعمل حارساً لنظامها وحاملاً لتراث العلماء الذين حققوا نهضتها وازدهارها. أعلم جيداً أن ما يلهب حماسه ان هو إلا توق

الإنسان إلى المعرفة وطموحه إلى تحقيق المعجزة ورغبته في تقليد الآلهة. إذ من أين لهذا الشيخ الذى لم ير ما رأيت أن يعرف تلك القوة الخفية التى تتلقف إنجازات العلماء فتحولها باتجاه يناقض الحلم الذى كان وراء إنجازها. إنه أنا الذى رأى وعرف وعايش ذلك العصر الذى يبدأ بالعلم وينتهى إليه، وآمن بالعلم أكثر مما آمن به هذا الشيخ، من يأتى الان لتحذيره من هذا كله. صرت أعرف الآن أن هناك كوة في الكون يأتى منها هواء فاسد يلوث الأحلام ويسخر من جهود العلماء. وأعرف أن رجل العلم الذى أسهم في إنجاز المكتشفات التقنية التى صنعت السيارة والطائرة والعقل الآلى، أو ذلك الذى فلق الذرة واخترق قوانين الجاذبية وتفوق بسرعة الآلة على سرعة الصوت، لم يكن يفكر أن لاختراعه نتائج أخرى غير تلك النتائج التى حلم بها واعتقد أنها تفتح آفاقاً أمام تطور الإنسان وتدرجه الحضارى وتحقيق سعادته فوق الأرض، لا أن تكون باباً مفتوحاً على الجحيم. إننى متطير من هذا الحماس الذى يبديه الشيخ، وأضع يدى فوق قلبى خوفاً على هذه المدينة من نتائج تفكيره، ولا يريحنى سوى شىء واحد وهو يقينى بأنه لن يحقق ما يسعى إليه لأن

للثورة الصناعية ميقاتاً تأخر عن هذا الرجل أكثر من سبعمائة عام. تركته يذهب إ لى عماله ومضيت متجولاً في الحقول استمتع بمراقبة ما يحدثه الخريف من تحولات فوق أوراق الشجر وأعواد القصب والخيزارن. جلست على ضفاف البحيرة، فرأيت ياقوت الشاعر ينبثق فجأة أمامى وكأنه خرج من ماء البحيرة، سألته مداعباً إن كان قد جاء إلى هذا المكان ماشياً فوق الماء فلم أنتبه إليه. قال وكأنه أخذ كلامى على محمل الجد:

- تلك مرتبة لم أصل إليها بعد.
- وهل تطمح بالوصول إليها ؟
- قريباً بإذن ا ، فأنا موعود بذلك.
- ومن تراه الذى وعدك بتحقيق هذه المعجزة ؟
- شيخى وأستاذى ودليلى الذى لم أستطع معه صبراً.

لعله اهتدى إلى سيدنا الخضر الذى لا يهتدى إليه إلا من ولد وقد رسم على قلبه خاتم الأسرار والنبوءات.

- ولماذا لم تستطع معه صبراً ؟
- رأيته ينتزع العسل من فم الثعبان ويدعونى لأن أشاركه هذا الطعام فترددت. تركنى غاضباً ومضى.

- وهل وعدك قبل أن يمضى بأنك سوف تمشى فوق الماء ؟

- وعدنى بأن يمنحنى كل أسراره عندما يكتمل استعدادى لذلك وها أنا أحاول.

- كيف ؟

- بإتقان العزف على الناى واستلهام النغمات الذائبة في الفضاء الكونى، فبهذا وحده أستطيع أن أقيس ما وصلت إليه من صفاء وما حققته في مدارج الإبداع والالهام. هذه كانت إرشاداته عندما علمنى العزف على الناى.

- أعترف بأن لعزفك سحراً على القلوب.

- هذا وحده لا يكفي.

- وهل هناك ما هو أبعد من ذلك ؟

- أريد أن أكون مثله. إنه يعزف للأشجار فتحمل جذورها وتسير وراءه.

- هل رأيته بنفسك يفعل ذلك ؟

- رأيته يفعل أكثر من ذلك. رأيته يعزف للصخور فتنبت أزهاراً ترقص وتغنى.

- ما أعظم شوقى لأن أرى مثل هذا الرجل.

- إنه لا يظهر لكل الناس، ولن تراه إلا إذا أرادك هو أن تراه.

بدأت أصدق أن من يتحدث عنه هو سيدنا الخضر، وأنه أختار هذه المدينة مكاناً لإقامته. فهتفت بالشاعر أن يخبرنى ماذا يمكن أن أفعل لأكون جديراً برؤيته. .

- أشياء بسيطة في متناول كل إنسان أن يفعلها. هل فكرت أن تحمى فراشة غشيمه يبهرها اللهب، من الاحتراق بنار موقدك ؟

كنت أريد أن أعرف منه المزيد عن هذا النبى الذى عاش طافياً فوق مياه الزمان، ولكن ياقوت الشاعر قال جملته الأخيرة واختفي خلف أشجار الصفصاف. وجدت نفسى وحيداً في ذات المكان الذى تعودت أن أنتظر فيه بدور وقد رفرف طيفها يملأ الذاكرة. تشوقت دائماً إليها، وعذبنى الحنين لرؤية عينيها، وكنت أمنع نفسى من التفكير بها وأهرب بمشاعرى إلي

الأميرة احتمى بها من هذا الضعف الذى جئت أحمله معى من عالم لم يولد بعد، فلقد كانت دائماً بجوارى تملأ ببهجة حضورها كل الفراغات إلى أن جاء الحمل يمنعها من

مرافقتى في هذه الجولات. تذكرت بأننى أعطيت وعداً لوالدى بدور بأن أزورهما. أفرحنى هذا الوعد الذى كدت أنساه، فهو ذريعة مقنعة تتيح لى أن أطفئ شوق البصر إلى رؤيتها. لا بد أن أراها، وسوف تكفينى دقيقة واحدة، لا أريد أكثر منها، لأعود إلى بيتى سعيداً راضياً. إنها تتعشق أن تنجب طفلاً يرث أسرارى وكراماتى، ولكننى سأعمل بنصيحة ياقوت الشاعر وسأحمى هذه الفراشة الغشيمة، البريئة، التى يبهرها اللهب الكاذب لمعجزة لا وجود لها، من الاحتراق في نار موقدى. وسريعاً ولجت الدرب الذى يقود إلى منزلها، أكاد أركض ركضاً لكى لا ينتصر هذا الخاطر الذى يحذرنى من خطورة العودة إليها. لم تكن بدور قد عادت إلى البيت عندما دخلت إليه محفوفاً بحفاوة والديها. أحسست بشىء من الارتياح لأننى لم أجدها. أن لها جمالاً لا أمان له، وقد يفتك بى هذه المرة أيضاً. جلست قليلاً ثم نظرت في ساعتى تمهيداً لأن أطلب الاذن. لم تكن هناك ساعة في معصم يدى ولكنها عادة لم أستطع أن أتخلص منها حتى ظن عمال بساتين القصر أننى أملك خاتماً موشوماً بصبغة سرية على ظهر يدى أنظر إليه دائماً وأستعين به

على قضاء حوائجى. وما أن وقفت مودعاً حتى رأيتها مقبلة. في الحق أننى رأيتها قبل أن أراها، وتوتر جسمى كله استعداداً لمجيئها قبل أن تأتى، كأن هناك تياراً يسبقها ويصنع هذه الارتجافة التى هزت بدنى، أقبلت بدور تعانقنى وهى تطلق ضحكتها ذات الرنين، التى تكشف بهاء الغمازتين المغموستين في دسامة الوجه. أتنسم عبيرها وأرى السحر الهاجع تحت جفونها فأعرف أنها هى اللهب وما أنا إلا أجنحة فراشة تحترق. أسمعها تسألنى إن كنت قد أخذت إجازة كما فعلت في المرة الأولى لأعيش أياماً معها. أقول متعجلاً الهروب، بأننى ما جئت إلا للتحية، فلا تتركنى حتى تتفق معى على موعد في اليوم التالى، قائلة بأنها أتقنت العزف على العود، كما أتقنت معرفة المقامات الصوتية، وسوف ترينى ما وصلت إليه من مهارة في العزف والغناء.

اخترت استراحة الصيد مكاناً للقائنا، فهو بيت بعيد عن المدينة، يحتمى بعزلته وأشجاره، وقد أصبح الآن خالياً إلا من نوتى عجوز يتولى رعايته، ويتخذ منه مسكناً بعد أن توقف موسم الصيد.

جاء الموعد وذهبت إلى هناك.

بدأ النهار ممطراً فانتظرت حتى توقف المطر واتخذت طريقى إلى ذلك البيت الذى يهجع تحت أقدام الجبل. في السماء شمس حنونة وفي الجو برودة منعشة. مشيت فوق العشب أستقبل الشذا الذى يصنعه الطل وهو يغطى الأرض والشجر، واقتربت أفتش عن مدخل البيت الذ"ى كان ديراً قديماً لعبادة القمر قبل أن يتحول إلى استراحة صيد. تشابكت حوله السراخس والزنابق والدوالى وأشجار اللبلاب وصنعت له غلافاً أخضر يغطى جدرانه كلها. وجدت النوتى الشيخ منهمكاً في إصلاح أحد الأشرعة وإكسائه بالقماش. سأل عن الخدمة التى يمكن أن يقدمها، فقلت له بأننى جئت لكى أتأمل الطبيعة من شرفة البيت. أخذت من مخزن التموين قارورة نبيذ وصعدت إلى شرفة بالطابق العلوى. أخرجت مقعدين مصنوعين من سعف النخيل، وجلست أتأمل الأعراس التى تقام في سقف الكون. انعكست أشعة الشمس على السماء التى رشحت دمعاً كثيراً، فصنعت قوس قزح كثير الإشراق والبهاء. امتص العناصر الملتهبة في ضوء الشمس، واحتوى كل الألوان وبرز الأخضر والأزرق والبنفسجى، ومن حوله

السحب المرشوشة بمسحوق الفضة وغبار الذهب تصنع بهوا في السماء يليق بجلال الآلهة.

كان المقعد بجوارى فارغاً.

وكان المشهد ناقصاً، حتى جاءت بدور تملأ هذا الفراغ وتصبح محوراً لهذا الجمال والتقاء عناصره حولها. جاءت تحمل حقيبة وضعتها بجوارها وجلست تقاسمنى الشراب. رأتنى مأخوذاً بمهرجان الألوان الذى يضج به الأفق، فأخبرتنى كيف أن الناس يتفاءلون بظهور هذا القوس المضىء، ويخرجون لرؤيته، ويتأملون ألوانه التى تفيد البصر وتمنحه قوة وجلاء. وبصمت وهدوء، كأنها تؤدى شعيرة دينية، فتحت الحقيبة، وأخرجت عوداً مرصعاً بالأصداف، وضعته بحنان فوق حجرها، وداعبت أوتاره بريشة من جناح طائر أزرق، وبدأت ترسل عزفها وغناءها.

علقت بصرى بمشاهد الطبيعة وأرهفت سمعى للغناء الذى ينثال عذباً شجياً كأنه يأتى منداحاً مع الضوء، وممزوجاً بألوان الطيف. أحسست بنفسى ثملاً، منتشياً بنشوة لا تصنعها إلا أقداح مترعة بخمر الآلهة. نظرت إلى جبينها وعينيها وحاجبيها وأنفها وفمها وغمازتيها، وانثيال غدائر الشعر

الفاحم السواد على كتفيها، أملأ بصرى من بهائها وهى تغنى باستغراق وانفعال كأنها في رحلة وجد صوفي. أيقنت أننى عاشق لهذه الأنثى التى تلثم وجهها أضواء ذهبية تنسكب من نوافذ السماء. وضعت العود جانباً فصفقت لها، وقبلت جبينها لاهجاً بالثناء على روح الإبداع التى تجلت في كل مقطع من عزفها وغنائها. جاء النوتى الشيخ مسحوراً بما تناهى إليه من غناء، يحمل في يده طبقاً من السمك المشوى، الذى يفوح برائحة الحبق والكمون، وينظر ساهماً إلى بدور. كان واضحاً أنه ما جاء بهذا الصحن إلا ليكون ذريعة يقتحم بها خلوتنا، ويشاهد هذه المرأة التى تملك صوتاً يضوع كالعبير. فتحت الرائحة شهيتى للطعام فأخذت منه الطبق شاكراً. سألتنى بدور ونحن نتناول السمك أن أخبرها عن حياتى في القصر ومجالس الحكم وما نفعله في رحلة الصيد، أفهمتها أن أهم ما أقوم به هو العمل بستانياً ومزارعاً في حدائق القصر، وسمعتها تذكر اسم نرجس القلوب فقاطعتها قبل أن تكمل السؤال، أطلب منها وقد انتهى الطعام، أن تزيدنى من هذا الغناء الذى لا ترتوى منه الأذن. رأيتها هذه المرة تعزف لحناً مألوفاً تذكرت بسرعة أنه لحن أغنية شعبية كنت أغنيها

في مراحل العمر الأولى مع أطفال المدينة القديمة. بل أن كلماتها التى تخاطب القمر العالى هى ذات الكلمات:

- يا قمر علالى علالى.

سافرى وتعالى وتعالى

تعجبت من نفسى كيف نقلت إلى بدور هذا اللحن وهذه الكلمات دون أن أدرى، فقد كنت أثناء جولاتنا في الجبال أدندن أمامها ببعض الألحان من محفوظاتى القديمة، دون أن أذكر أننى أسمعتها هذا اللحن. نقلت لها حيرتى، فأجابتنى بأنها لم تسمع هذا اللحن منى. إنه من الحانهم القديمة المتوارثة التى يغنيها الناس ويتجهون بها إلى القمر منذ أن كان كوكباً يعبدونه ويسمونه سيدة السماء. لم تستطع بدور أن تفهم سر الذهول الذى أصابنى، ولم أستطع أن أقول لها بأن هذا اللحن الذى تغنيه الآن يمثل اكتشافاً مذهلاً بالنسبة لرجل قطع مسافة ألف عام عائداً إليهم، وأننى أعثر الآن، وفي هذا اللحن، على وشيجة تربط بين هذه المدينة وبين المدينة التى عرفت مولدى ونشأتى. أما كيف عاش هذا اللحن كل هذه المدة، وكيف ذهب إلى هناك مسافراً عبر المسافات والعصور، حاملاً معه آثار ديانة قديمة، انقرضت الديانة ولم

ينقرض اللحن، فلا أرى فيه إلا تعبيراً عن قوة الفن الذى يقهر الموت والزمن. ولا أرى في هذا اللحن إلا دليلاً على صلة قديمة غامضة تربط بين هذه المدينة ومدينتى الأولى.

قلت وأنا ما زلت مترع القلب بما سمعت:

- لا شك أنه سيكون لك شأن كبير في الغناء عندما يسمعك الناس.

- ما أكثر الدعوات التى جاءتنى للغناء في الاحتفالات واعتذرت عن قبولها.

- أرجوك لا تعتذرى وإلا استعملت سلطة سالك الدرب في إرغامك على الغناء.

- ولماذا تريد أن تفعل ذلك، هل لأنك واثق من موهبتى ؟

- لأننى لا أعرف مكرمة أخرى أقدمها لأهل المدينة خيراً من هذه المكرمة.

توارت الشمس خلف الأشجار والحقول، واتفقنا قبل أن نفترق على موعد للقاء. عدت إلى القصر وذهنى ما زال مشغولاً بالأغنية الشعبية التى عبرت مثلى هذه المسافة، وسكنت حناجر الناس في المدينتين، تملأنى بوهج الذكريات

الذائبة في الزمن الذى مضى وهو لم يأت بعد. صار موعد لقائى مع بدور موعداً ثابتاً من كل أسبوع. أذهب كالسائر في نومه، تسوقنى إليها رياح داخل الصدر لا أستطيع لها دفعاً. أجلس بجوارها، مسحوراً بغنائها، مكتفياً باغتراف الفرح البرىء من عينيها، دون أن أنشد متعة أكثر من هذه المتعة، ومراقبة مشاهد الطبيعة التى تصنع إطاراً يليق بصورتها.

لمدة أسابيع خمسة كان اللقاء ينتهى بانتهاء النهار. وفي الأسبوع السادس تأخر لقاؤنا قليلاً، لأن بدراً شديد السطوع أشرق بغتة في الجانب المقابل من الأفق. تطلعت إليه بدور قائلة:

- سيكون إساءة لبهاء هذا القمر أن نتركه ونذهب إلى النوم.

قلت في خاطرى لعل هذا الإله الذى أحالوه على التقاعد سيعاقبنا لو فعلنا ذلك، فهو ما زال غافلاً عما حدث له، يأتى متألقاً، محفوفاً بمواكبه الباذخة وكأنه فعلاً إله الكون.

- بدأ الناس يخرجون الآن من ديارهم ويحتفلون بظهوره.

كنت أتساءل بينى وبين نفسى عما سيقوله الناس وهم يروننى أتنزه في عيد القمر مع امرأة ليست زوجتى. ولكن بدور التى قرأت أفكارى أسعفتنى بالحل عندما قالت:

- ألا تراه ليلاً مناسباً لنزهة فوق مياه البحيرة ؟

- نعم. إنه كذلك فعلاً.

ذهبت تركض إلى النوتى تسأله أن يعيرنا قارباً للقيام بنزهة صغيرة. أخذنا نبيذاً وتفاحاً وتيناً مجففاً، وقادنا النوتى إلى القارب. كان الليل يشبه نهاراً مغسولاً بماء الذهب، ووجه البحيرة بدا هادئاً، ساطعاً، تناثرت فوقه قوارب تنداح فوق الماء كالمراجيح، ومن بعيد تناهت إلينا أصوات المزامير وأهازيج الناس الذين خرجوا لتحية القمر. لم يستطع النوتى أن يقاوم غواية المشهد، فجاء يشاركنا هذه النزهة، ويتولى بنفسه قيادة القارب، ومضى يحرك مجاديفه التى تثير فقاقيع تتوهج لحظة تحت مسقط الضوء وتذوب في العتمة الممزوجة بالماء، في حين أرسلت بدور حنجرتها بغناء تناجى به البدر الذى وقف على حافة السماء، باسطاً رضاه ورحمته على المياه والأشجار والبشر. غنت له والليل

والأساطير، وأعلنت انتماءها لشىء واحد في الدنيا هو العشق.

- لا بد أن يكون لى طفل يحمل أسرار سالك الدرب.

وسط الغناء همست بكلماتها في أذنى. ارتشفت جرعة من قارورة النبيذ، وأخذت تفاحة قضمت منها جزءاً وأعادتها إلى فمى، ثم واصلت الغناء وكأن ما قالته شىء لا يستحق مناقشة أو رفضاً أو قبولاً، فهذا هو قرارها الواجب النفاذ. كنت في كل مرة التقى بها أ قاوم فورة الدم في عروقى، وأمنع نفسى من السقوط محترقاً في موقد نار الشهوة. ولكن للقمر الإله تأثيراً على الحواس لا سبيل إلى الهروب منه، ومواسم الإخصاب والحب التى ترافق ظهوره عند اكتمال استدارته ليست إلا دليلاً على هذا التأثير. وجدت نفسى أضمها وسط القارب إلى صدرى. ألثم الوجه الذى بلله الرذاذ، وأشرب من رحيق الورد مثل نحلة عطشى. تأخر بنا الليل قبل أن نعود إلى الشاطئ، ودونما تفكير في العواقب قررت أن أمضى ما تبقى من هذا الليل في فراشها. ذهبت معها إلى بيتها، ودخلت كفراشة تدخل حدائق النار إلى غرفة

نومها، وفي صمت خلعت هى إزارها، وارتمت عارية فوق شراشف الحرير.

لم أجد صعوبة عندما عدت في الصباح إلى القصر، في أن أخترع سبباً مقنعاً لمبيتى خارج البيت. لقد ذهبت أحضر مع الناس أعياد القمر، وعندما انتهى الاحتفال، كان الوقت متأخراً، وكنت ثملاً لا أقوى على المشى، فطرقت باب أول بيت يصادفنى وقضيت الليل هناك.

كنت عاتباً على نفسى، أعانى لحظة يشتبك فيها الفرح بالأسى. لم تتبخر آثار ليلة الغبطة واكتمال القمر، ولكن إحساساً بالاثم جاء يلونها وأنا ألتقى بنرجس القلوب. إننى لا أحفظ لهذه الأميرة عهداً، ولا أعبأ بنواميس المدينة التى تكره الكذب، ولا تبيح أن يرتبط الرجل بأكثر من امرأة واحدة، وترتبط المرأة بأكثر من رجل واحد، في وقت واحد.

حاولت فيما تلى ذلك من أيام أن أمنع نفسى من مقابلة بدور، وأن أضع حداً لعلاقتى بها، ولكن ما أن يأتى موعدها حتى أجد نفسى مدفوعاً بقوة كأنها السحر للقائها. أفكر أحياناً أن أعترف لنرجس القلوب بما حدث. أن أجلس معها جلسة صدق ومكاشفة، وأخبرها صراحة بعشقى للمرأة الأخرى،

واكتشف أثناء لحظة المواجهة أننى لا أقوى على ذلك، فأهرب للاحتماء بشخصية الرجل القادم من خارج العصر، مؤجلاً اتخاذ أى قرار.

ما أن بدأت بدور تغنى في الاحتفالات العامة حتى ذاع صيتها بين الناس باعتبارها نسيجاً وحدها بين أهل الغناء. وجاء موعد احتفال تقيمه المدينة بإحدى قاعات القصر إحياء لذكرى مرور ألف عام على إعادة بنائها بعد أن أهلكها إعصار يسمونه الإعصار الأصفر، فعرفت أنها ستكون ضمن المشاركين في الحفل. أقلقنى خبر مجيئها إلى القصر، وحملت عبء المخاوف التى أثارها في نفسى هذا الخبر، إلى أن جاء يوم الحفل. وصلت بدور في موعد مبكر. استقبلتها نرجس القلوب بابتسامة ترحيب وحفاوة، ونقلت إليها ما سمعته من إعجاب الناس بصوتها وعزفها، وقدمتنى إليها فصافحتها مصافحة رجل يقابلها لأول مرة. كنت أضع بصرى في الأرض خجلاً وأنا أرى الأميرة تحتفي بضيفتها، وقد طفح وجهها براءة، غير مدركة أن هذه المرأة ليست إلا شريكتى في خيانتها. أنه أول لقاء بينهما، وبينى وبينهما في صورة تتسع لنا نحن الثلاثة. تذكرت كل الكلمات التى لا أحد

هنا يعرفها. الغش والخداع والخيانة. ها قد جئتهم بحمولة كبيرة منها. لبيعها في أسواق مدينتهم التى تجهل هذه البضائع الجديدة، الغريبة، المستوردة من عالم آخر وعصر آخر. امتلأت حنقاً من نفسى، وقطعت عهداً صامتاً بأن أكاشف بدور عند أول لقاء برغبتى في الانفصال عنها، لا كرهاً لها، وإنما تضحية وإيثاراً واحتراماً لنواميس وبهاء مدينتها. سمعتها تعبر عن رغبتها في أن تتجول قليلاً في أنحاء القصر الذى تزوره لأول مرة. فعرفت أن مجيئها المبكر لم يكن إلا بهدف أن ترانى كيف أعيش وراء حيطان هذا القصر. قادتها نرجس القلوب عبر الأروقة والردهات، وسرت خلفهما، محتفظاً بمسافة بينى وبينهما، أرقب بدور وهى تشتعل فضولاً وأسئلة ودهشة، وتطلب في ختام الجولة طلباً لم أر زائراً من قبل يطلبه، وهو أن ترى الغرفة المغلقة على أسرارها التى تقول بأنها سمعت شتى الأحاديث والحكايات عنها. كنت قد نسيت أمر هذه الغرفة كما نسيت الآن موقعها، لأن أحداً في القصر لا يأتى على ذكرها. كان السؤال مفاجأة لنرجس القلوب التى وقفت لحظة لا تقول شيئاً. ثم في صمت ونبل استدارت ومشت تقودها عبر ممر طويل مهجور إلى

باب الغرفة. وقفت بدور أمام الباب المغلق بالأقفال وأسياخ الحديد، تنظر باندهاش إلى النقوش والتكوينات المرسومة فوقه. تحاول أن تفك رموزها، وتقرأ الكلمات التى تداخلت حروفها، وتسأل بفضول إن كان أحد يعرف ما يوجد خلف هذا الباب. أخبرتها نرجس القلوب بأنها غرفة منسية، لا يهتم أحد بأمرها ولا يعرف ما خلفها. انتهت هذه المهمة الثقيلة ووقفت مع الأميرة على باب القاعة نستقبل الضيوف. مدت أسمطة الطعام والشراب، وفرغ الناس من العشاء فبدأت حصة الطرب والغناء. استهلها الشاعر ياقوت بتلاوة أشعاره المنغومة. ارتدى عباءة خضراء وأحاط عنقه بشال من الحرير فبدا جميلاً، بوجهه الفتى وشعره الطويل، كجمال الصبايا. القى أشعاراً تحية لهذه الذكرى، وتمجيداً للمدينة التى أزهرت بعد الذبول والموت وانبعثت من رمادها بعد كارثة الإعصار الأصفر الذى تدفق من شقوق الجبال، فأهلك البشر والشجر والطير. ثم عزف على نايه شجى الألحان. وجاءت بدور تختال في ثوب بنفسجى يجر فوق الأرض لم أنتبه لجماله إلا وهو يسطع تحت قناديل هذه القاعة وقد زينت شعرها بالورود. أخذت عودها الذى تضيئه الأصداف

وجلست فوق الأريكة تداعب الأوتار وترسل جميل الغناء. تعالت أصوات الإعجاب والثناء وتدفق الصوت نهراً يسيل رحيقاً يترع النفوس ويثملها ببهجة سماوية. نسيت ما كان يخالجنى من اضطراب وحرج، وتحولت إلى كائن أثيرى، يعانق ذرات الضوء ويقتات من عشب الغناء، ولا يقيم اعتباراً للمسائل الدنيوية. إلى أن رأيتها تجالس الشاعر ياقوت، وترقص معه، وتبادله حديثاً هامساً. استيقظت في قلبى مشاعر الكائنات الطينية، وأطلت الغيرة نبتة سوداء، فسحقتها قبل أن تجرحنى بأشواكها. إنها لا تليق برجل غيره، وهو لا يليق إلا بها. جمعت بينهما الوسامة ومهنة الفن وسنوات العمر الخضراء. ويجب أن أكون سعيداً إذا نشأت علاقة حب بينهما تحررنى من عنف هذه الغواية وقوة جذبها وتأثيرها. هذا عشق يجب أن أحاربه في نفسى، وأطارده من عقلى وقلبى، من دمى وجوارحى وساعات نومى وصحوى، إذا أردت أن أكون جديراً بالحياة بين هؤلاء الناس، والانتماء إلى هذه المدينة.

وجاء اليوم المحدد للقائى معها. صحوت مبكراً للقيام بتمارين الصبح الروحية. استلقاء فوق الأرض. اندماج مع

روح المكان. عزلة مع النفس. ابتعاد عن العالم الخارجى. طرد لكل الهواجس والأفكار. استغراق في التأمل واستكشاف الأصوات التى لا تصدر إلا من أعماق الذات.

انتهيت من قراءة الفاتحة " اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ". وبدأت التمرين بأن أرهفت السمع إلى كل ما يدور حولى من أصوات. سمعت غناء الطيور في الحديقة، خرير الماء في الجداول، حفيف أوراق الشجر، صرير الجنادب. صار سمعى أكثر حدة ورهافة، استطعت أن أسمع ما لا يمكن سماعه في الحالات العادية، حفيف أجنحة الطيور ودبيب أقدامها فوق الأغصان، هفيف أوراق العشب وأزيز حشرات دقيقة لا تراها العين. ثم أغلقت أذنى عن الاستماع إلى الأصوات القريبة لأتلقّى أصواتاً بعيدة تأتى من خارج سور المدينة، فكرت في الحقول والبحيرة وشلالات الماء والهضاب التى تنطرح خلفها الغابة، تهيأ لى أننى أسمع هدير الماء في الشلالات، ضرب المجاذيف في البحيرة، أصوات طيور وحيوانات تستيقظ في الغابة، صرير أبواب تفتح وتغلق في الضياع البعيدة، وقع خطى أناس يعبرون بوابة المدينة

ويجوبون طرقاتها. تركت بعد ذلك الأصوات تنهمر في أذنى. القادمة من القصر وحدائقه ومن داخل المدينة وخارجها. اندمجت جميعها في نغمة واحدة مثل عزف فرقة موسيقية اختلطات أنغام آلاتها، فلم يعد ممكناً تمييز واحدة من أخرى. ثم أغلقت سمعى واتجهت إلى نفسى، تصورت أن هذه الأصوات لم تعد موجودة وحل بدلاً منها الصمت والسكون. انسحبت من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر إلى الباطن، لكى لا أنصت إلا إلى نفسى، إلى حركة الدم في عروقى، إلى الهواء الذى يدخل ثم يغادر رئتى، إلى النبض الذى يتردد في صدرى، إلى عناصر الماء والهواء والضوء والتراب وهى تتفاعل في جسدى. انتقلت مما هو معلوم من الأصوات إلى ما هو غير معلوم ولا معروف. استمعت إلى أنين المزامير التى تعزفها أنسام تهب داخل شعاب الروح، وهديل حمام وغناء طيور فوق أشجارها، إلى صنجات تدقها خلايا البدن وشعيراته الدموية، إلى رنين زهور تتعانق على ضفاف الجداول التى يسرى عبرها الدم. بقيت هاجعاً، صامتاً، مستمتعاً بهذه السكنية الداخلية حتى أحسست بأننى مهيأ لأداء التمارين التى توقظ المدارك الغافية خلف الشعور،

أصدر أمراً واعياً إلى يدى بأن تبقى مسدلة بجوارى، ولكنها ترتفع في حركة تتناقض مع الأمر الذى أصدرته الإرادة الواعية، استجابة لإرادة أخرى تهجع خلف هذه الإرادة، ثم أصدر لها أمراً بأن ترتفع حتى تلامس رأسى، ولكنها تبقى ممددة فوق الأرض لا تتحرك، رافضة أن تستجيب لغير الإرادة الأخرى. أواصل التمرين عدة مرات، تدريباً وإيقاظاً لتلك الإرادة الداخلية النابعة من عمق الذات. ثم أجد نفسى غاطساً في سحابة بيضاء، سديم يغلفنى ويحمينى من كل الهواجس والأفكار والأصوات. صار ذهنى صفحة بيضاء، وأنا ورقة تسبح في فضاء لانهائى، وتتحد بذرات الهواء التى تغلف الكون. انتهى من التمرين وأقوم من رقادى إنساناً سكنت اضطراباته واختفت أوجاع روحه وتحرر من مشاعر القلق والخوف وانبثق في أعماقه نور يضىء المناطق المعتمة. وبهدى من هذا النور صرت أفكر في الأسلوب الذى أعالج به علاقتى مع بدور. وكان أول ما خطر على ذهنى هو أن أمتنع عن الذهاب إليها. سوف تدرك وهى تأتى فلا تلقانى أن العلاقة بيننا قد وصلت إلى نهايتها المرتقبة، وسوف يغنينى هذا الغياب عن الوقوف أمامها مرتبكاً لا أجد

مقالاً يناسب المقام. ولكنه سلوك لا يستقيم مع نبل هذه التضحية وإهانة لا تليق ببهاء هذه المرأة. يجب أن أذهب وأضع الأمر كله أمامها، وأترك اتخاذ القرار لها. كان الجو غائماً عندما جاء منتصف النهار، اختفت الشمس وامتلأت السماء بالسحب القاتمة، المنذرة بأمطار الشتاء. ركبت بمفردى قارباً صغيراً رأيته يعود فارغاً إلى البحيرة، يقوده نوتى يلتحف بعباءة ثقيلة. وما أن قطع القارب مسافة قليلة حتى بدأ المطر بالهطول. كان مطراً خفيفاً لم أعبأ بالبحث عن وقاية منه. وقفت ممسكاً بعمود وسط القارب أستقبل حباته وهى تسيل فوق وجهى، وأرقبها وهى ترقص فوق سطح البحيرة فأرى في رقصها تعبيراً عن فرحة التقاء الماء بالماء. لم يكن النوتى الذى أحكم العباءة فوق رأسه يخشى المطر، ولكنه رحمة بى أراد أن يركن القارب تحت سقف الجسر الذى وصلنا إليه. سألته أن يواصل رحلته، وأنا أحس بنشوة غريبة يبعثها في نفسى هذا المطر الذى جاء يغسلنى ويطهرنى من إثم علاقة مبهجة، جميلة، آثمة، سأضع لها حداً هذا اليوم. وصلت إلى الضفة القريبة من الدير القديم، فتركت القارب وسرت عبر الدروب المعشوشبة، أقفز فوق الغدران،

وأراقب فرحة الشجر والأعشاب، وأستمع إلى الأصوات التى تحدثها زخات المطر وكأنها وقع حوافر خيل لا مرئية.

وأتقاطر ماء وصلت إلى الاستراحة. لم تكن الشرفة مكاناً مناسباً للجلوس في مثل هذا الطقس، ولم تكن غرف البيت مهيأة لاستقبال الضيوف في مثل هذا الفصل، فدخلت إلى مخزن يمتلئ بالأشرعة المهشمة، والقوارب القديمة، ورائحة الخشب الذى تبلله الرطوبة. افترشت حشية قش، ورميت عباءتى التى كانت تنتفخ بماء المطر، والتحفت بوزرة من الصوف وجدتها بين ملابس الصيد، وجلست أحتضن موقد النار الذى ساعدنى النوتى في اعداده. تأخرت بدور عن المجىء، فأحضرت نبيذاً وأطباقاً من الفستق والبندق واللوز وجلست أحتسى كأسى، وألقم النار مزيداً من أحطاب الأشرعة، وأنصت إلى صوت المطر يقرع الأسقف والجدران بعنف وإلحاح. صرت أملك الآن ساعة داخلية كبديل عن ساعة معصمى، أقيس بها الوقت. تأخرت بدور أكثر من ساعتين وبدا لى أنها لن تقوى على الخروج في مثل هذا اليوم المطير. فكرت في العودة إلى القصر ولكننى لم

أكن مستعداً لمشوار آخر تحت هذه الأمطار التى زرعت في أطرافي ارتعاشة البرد.

وقبل أن تصل بدور سبقتها نفحة من روحها. عرفت أنها قادمة فوقفت أمام باب الدار أنتظرها. كانت ترتدى برنساً فوق قفطانها الحريرى. خلعت البرنس ذى القماش الشمعى الذى ينزلق فوقه الماء، وجلست بجوارى فوق حشية القش، قائلة بأنها انتظرت أن يتوقف المطر لكى تستطيع أن تأتى بعودها معها، وعندما تأخر الوقت تركت العود وجاءت.

- إنه عود نادر لا يصنعون مثله إلا في بغداد، ولا أريد لحبة مطر واحدة أن تلمسه. ولكن لا تحزن. إن في حنجرتى ما يكفي من الأوتار التى تعزف وتغنى دون حاجة إلى آلات الموسيقى.

ليس غناء الحنجرة وحده الذى يبهجنى، ولكن كل هذا النشيد الذى يترقرق في خاطرى ندياً، صافياً، يعزفه حضورها المجيد جسداً وروحاً وضوءاً وعطراً. انتبهت إلى أن هذا النشيد هو ما جئت اليوم أسمعه لآخر مرة، وأننى سأفترق عن هذه الأنثى ولن ألتقى بها في غرفة مغلقة بعد هذه الجلسة. أفزعنى هذا الخاطر فالتصقت بها حتى لامس

نهدها زندى. أحسست بأنوثة الجسد الباذخ المبلل بالماء تثير ذكورتى وتوقظ الرغبة ساخنة، حارقة، في عروقى. إنها اللحظات الأخيرة من عمر علاقة عشق هاربة. سأمنح نفسى كاملة لهذه اللحظات، وسأعلق داخل صدرى جرساً ينبهنى إلى ما تبقى من الوقت، لكى لا تداهمنى الدقيقة الأخيرة بغتة. دندنت بدور بأغنية قصيرة، مرحة، سريعة الإيقاع، وتجلت تلك البحة المبهجة اللذيذة في صوتها أكثر إثارة وإغراء من غنائها بصحبة العود. كان الصوت يأتى الآن عارياً من الكساء الذى تلبسه له الموسيقى، فيظهر بكل لاذاذاته وتفاصيله الأنثوية المثيرة. ليكن حبها إثماً، أو ضعفاً، أو نزقاً، أو نزوة، أو مرضاً، أو جنوناً. ليكن تحطيماً لكل النواميس والأعراف، وخروجاً على تقاليد المدن المرجانية واستهتاراً بها، فإننى لا أستطيع أن أتوقف عن حبها لحظة واحدة. حاولت وأنا أستمع مبهوراً إلى غنائها، مغموراً بشفافية الضوء الذى يصنعه وجودها، أن أنزع نفسى منها، لأستحضر صورة الأميرة نرجس القلوب بوجهها القمرى الاستدارة وصفاء ابتسامتها ورقة شفتيها، امرأة بالغة البهاء

والعذوبة، ولكن قلبى برغم جمالها كله، يبقى منذوراً لهذه الأنثى التى لا تشبه أحداً إلا نفسها.

- ما رأيك؟ أنها أغنية جديدة مازلت أتمرن عليها.

- هذه أغنية تختلف عن سابق أغانيك، فلعل شاعراً وعازفاً مثل ياقوت هو من أعطاها لك.

- من أخبرك بذلك ؟

إذن فالأغنية من ابتكاره. وهواجسى لم تكن كلها أوهاماً. أدركت أن في اللحن والكلمات شيئاً جديداً لا تصنعه السليقة الشعبية وإنما قريحة مبدع له قدرة على التجديد والابتكار وتجاوز الأفكار والأشكال المسبوقة. ها هى علاقتها به قد توثقت حتى صار يؤلف ويلحن خصيصاً لها.

- رأيتكما تترافقان تلك الليلة فأيقنت بأن الفن في مدينتنا سيحقق ازدهاراً عظيماً.

- كان كل ما كنت أغنيه من المحفوظات القديمة، إلى أن جاء هو يمنحنى خبرته، ويساعدنى في بناء شخصية فنية جديدة متميزة.

أليس هذا ما كنت أريده. أن يثمر اللقاء بينهما علاقة تبعدها عنى وتحررنى من غوايتها، فلماذا أبدو مهموماً

أتصور وكأن ياقوت الشاعر جاء يسرق شجرة الفرح الوحيدة في حديقة بيتى، يعزف لها مزاميره، فتنتزع جذورها من أرضى وترحل وراءه. لا تفسير لهذا الوجع الذى أحس به، إلا أننى أحبها حباً أقوى من الإرادة الواعية، وأقوى من مشاعر الامتنان والوفاء نحو تلك المرأة التى رأيتها تستعير ملامح شهرزاد الأسطورة فتعلقت بها واخترتها زوجة منذ أول ليلة. أما الحب، أما تلك العاطفة التى تشبه شرارات النار التى تقدحها خناجر البرق فوق الماء والأشجار والحجارة، فإنه لا أحد يثيرها في نفسى، أو يوقدها تحت أضلعى، إلا هذه المرأة التى جئت راغباً منذ لحظات في الانسحاب من حياتها. هكذا قالت إرادتى الواعية، ولكن التمرين الروحى أيقظ في نفسى إرادة أخرى أكثر صدقاً وعمقاً تكمن خلف هذه الإرادة، وتقول بعكس قولها، وهى تأتى الآن لتفرض مشيئتها وتبطل الاستجابة لأية إرادة أخرى غير إرادتها.

كانت عاصفة المطر ما تزال تعزف نشيدها الوحشى خارج الدار. وكأنها تريد أن تغرق الدنيا وتصنع أسطورة طوفان جديد، عندما قالت بدور:

- يبدو مثيراً أمر تلك الغرفة وبابها المغلق بالأسياخ والمحصن بالطلاسم.

لم أقل شيئاً لأن ما يهمنى الآن ليس تلك الغرفة وذلك الباب، وإنما هذا الباب الذى تسلل منه ياقوت الشاعر إليها، مستخدماً ألحانه وقصائده التى تشبه التعاويذ السحرية، لكى يأخذها إلى عوالمه.

- يقولون ان الغرفة ليست إلا سجناً قديماً يحتوى على الجماجم والهياكل العظمية لضحايا الظلم الذى كان سائداً في عصور سالفة.

- إنه ماض جدير بالاهمال والنسيان وسط غرفة لا يدخلها الضوء والهواء.

- ولكن هناك من يقول أن وراء ذلك الباب المغلق نبع ماء يعيد الشباب المفقود لكل من يستحم بمائة.

- ها هى الروايات تتناقض وتبطل بعضها بعضاً.

- فما الذى تصدق أنت ؟

- وما أهمية أن أصدق أو لا أصدق؟ أنها غرفة مغلقة وستبقى كذلك مدى الدهر.

- ألا تثيرك أسرارها ؟

- رأيتك تلك الليلة تتفرسين في النقوش والرموز وكأنك تستطيعين قراءتها.

- ليتنى أستطيع، فلابد أنها تقول شيئاً عما تحتويه الغرفة. كم كان جميلاً أن تستجيب الأميرة لرغبتى وتقودنى إليها. أتمنى أن يكون غنائى تلك الليلة أعجبها.

قلت لنفسى لابد أن غناءها أعجب الأميرة، ولكن هل يعجبها ما نفعله الآن. رأتنى صامتاً فواصلت الحديث:

- أحببتها منذ أن كنت أراها من بعيد تحضر الاحتفالات وازددت حباً لها عندما قابلتها وسمعت حديثها.

نظرت إليها مستغرباً وقلت لها أن هذا الكلام لا يستقيم مع حقيقة أن الأميرة التى تتحدثين عنها هى في ذات الوقت المرأة الأخرى التى تقف على الطرف الآخر فوق أرض هذه العلاقة.

- وهل حسبت أن علاقتى بك تغضب الأميرة.

أدهشنى ردها، فبقيت صامتاً، حائراً، أنظر إليها وأنتظر توضيحاً لما قالته. عرفت منها أن تقليداً عاشت عليه المدينة منذ العصور السالفة يسمح لنسائها اللاتى يرغبن في إنجاب أطفال من صلب الأمير أن يذهبن إليه ويطلبن ذلك

منه. وهو اتصال لا يبيحونه إلا مع الأمير القادم من الصحراء وليس مع من يخلفه، لأنهم بذلك يحصلون على أبناء يرثون أسراره وكراماته. ولم يتوقف هذا التقليد إلا عندما جاء الرجل الصوفي الذى امتنع عن الانشغال بغير أوراده وتأملاته وصلواته. ولذلك فإن بدور لا تجد في هذه العلاقة إثماً ولا حرجاً ولا سبباً يغضب الأميرة، وترى أن تقليداً كهذا يجب أن يعاد إحياؤه حرصاً على تحسين الانساب والسلالات. أما إذا بقى تقليداً منقرضاً فهى سعيدة بأن تكون الاستثناء الوحيد. لقد أخبرت أمها قبل أن تأتى بأنها قادمة لملاقاتى وسألتها ألا تقلق إذا ما اشتد هطول الأمطار وقضت الليل معى. فهى علاقة لا تثير حفيظة أحد ولا يرى فيها أهل المدينة شيئاً خارجاً على المألوف أو مناقضاً للتقاليد.

كان ما قالته كلاماً غريباً يصعب تصديقه. لعلها تقوله من أجل الدعابة والتسلية. تذكرت أننى سمعتها ذات مرة وبحضور أمها وأبيها تتحدث عن رغبتها في طفل يحمل أسرار سالك الدرب. اذن فإن ما قالته لم يكن مزاحاً، وما أقوم به الآن شيئاً لا يسىء إلى نرجس القلوب ولا يتناقض مع شرائع المدينة وتقاليدها، بل هو يأتى ترسيخاً وتعزيزاً

لهذه التقاليد، وإذا ما حدث أن جاء أمير زاهد، ناسك، لا يقوى على القيام بأعباء هذا الواجب فالذنب ليس ذنبى. عقدت الدهشة لسانى فلم أجد كلاماً أعبر به عن الغبطة التى داهمتنى. مددت ذراعىّ أضمها بهما وأدخلها في دفء عباءتى. أسلمت فمها إلى فمى ونهديها إلى صدرى. اشتبكنا في عناق الارتجاف واللهفة والشهوة والتوتر، وارتمينا فوق حشية القش، متلاصقين متلاحمين نتبادل القبلات، وننعم بحلاوة الوصل، وننسى العواصف والأمطار وصوت الريح والرعد، فلا نذكر إلا هذه العواصف والبروق التى يصنعها جسد يدخل جسداً، وشوق يداهم شوقاً. ولأول مرة أعانقها وأهصر قدها دون احساس بالإثم والملامة. ممرغاً وجهى في شعرها، لاثماً جبينها وعينيها، فمها وغمازتيها، عنقها وكتفيها، سرتها ونهديها، مستمتعاً بمخملية الجسد وعذوبته، ودفئه وسخونته، متنقلاً من طقس إلى طقس، ومن مدار إلى مدار، ومن فصل إلى فصل، دون أن أرى ملاك المعاصى والذنوب يقف على كتفي يلومنى ويعاتبنى ويحمل مهمازاً يوخز به صدرى. بهجة تترقرق صافية تحت الضلوع،

يباركها الليل والنبيذ، والنار والمطر، وملائكة الضوء والظلام.

قلت لها وأنا مازلت ممدداً فوق حشية القش، أداعب خصلة من شعرها الذى تهدلت غدائره فوق صدرى، وانسكب عطره، حقلاً من الزنابق، ينتشر في دمى.

- وماذا عن ياقوت الشاعر ؟

كانت خيول المطر قد توقفت عن الركض، وأعقب ذلك صمت لا يجرحه إلا انين الأشجار التى يضاجعها الريح.
قالت وهى ما تزال تسند رأسها على صدرى:

- وماذا عنه ؟

- لن أسمح له بأن يأخذك منى مهما كان عزفه ساحراً.

رفعت رأسها تنظر باندهاش نحوى.

- من أين جئت بهذه الفكرة ؟

كانت ألسنة النار قد تحولت إلى جمر. وقنديل الزيت ينشر لهاث ضوئه فوق وجهها فيجعل لأهدابها ظلالاً تزيد اشعاع عينيها ألقا وسواداً. هربت من نظراتها قائلاً:

- ربما لأننى تصورت أنه يليق بك أكثر من أى رجل آخر. إنه أصغر سناً وأكثر وسامة منى، وهو صاحب شهرة في المجال الذى تحبينه، وله جمال يغرى النساء بحبه.

- لعلك زاهد في صحبتى واردته أن يكون صاحباً لى بدلاً منك.

استوت جالسة، فنهضت من رقادى لألثم نجمة مرسومة بالحناء على ظاهر يدها وأمرغ وجهى في مخمل كفها قائلاً:

- لن أطيق فراقك أبداً.

وملتحفاً بوزرة الصوف ذهبت أحمل المصباح أبحث في الغرف المجاورة عن مزيد من الشراب وأطباق الفاكهة المجففة لتكون عشاءنا، كما جئت بأكلمة وأغطية تتيح لنا أن نحتمى بدفئها من برد هذا الليل.

لم يكن ياقوت الشاعر هو الذى يهدد علاقتنا. ما يهددها أنها علاقة تقف فوق أرض قلقة متحركة، ويجب الآن، وقبل فوات الأوان، أن أمنح الأمان لهذه العلاقة، وأخبر هذه المرأة، بأننى لا أريد من الدنيا إلا صحبتها، وأننى سأضع حداً لهذه الازدواجية في الحياة والحب بأن أتحرر من

ارتباطى بنرجس القلوب، وأنصرف انصرافاً كاملاً لها. تعهد واضح صريح يضع العلاقة فوق أرض ثابتة ويضمن بقاءها واستمرارها. كنت مخطئاً عندما جئت هذا اليوم بهدف أن أضع نداء الواجب قبل نداء القلب، وما تريده المدينة قبل ما تريده عواطفي، وتصورت أن هناك تناقضاً لا حل له إلا بالتضحية بهذه العلاقة وهذه المرأة، لأن مدينة عقد المرجان أبهى وأكرم من هذه الصورة التى تصورتها. إنها لا ترضى بمثل هذه التضحيات ولا تجعل نداء الواجب مناقضاً لنداء القلب، أو ما تريده هى مناقضاً لما يريده الفرد. ولذلك فاننى لن أرغم نفسى على شىء لا يريحنى، ولن أتخلى عن عشق امرأة، أعرف الآن على وجه اليقين، انه لا يلائم مقاس قلبى إلا مقاسها.

كان مريحاً أن أسمع بدور تحدثنى عن ياقوت الشاعر بما لا أعرف. فهو يعيش هائماً في أودية الجن، ويتعشق امرأة أثيرية يقول بأنها لا تتجسد في صورتها الكاملة إلا له، ولا تظهر جمالها لأحد غيره، ألقت عليه شباكها وملكت عليه نفسه فلا يغنى لأحد إلا لها، ولا يستلهم الشعر من شىء في الوجود إلا من سحر عينيها وضياء ثغرها. ابتنى لنفسه كوخاً

على ضفاف البحيرة، واختار أن يعيش وحيداً لا ترافقه إلا غزالة تفهم حديثه وتطرب لعزفه وغنائه. عدت من جديد أتأمل كلمات الأغنية التى أعطاها لبدور كى تغنيها. كانت تتحدث عن غفلة الإنسان الذى يظن بأن ما يراه ويسمعه هو كل شىء في الدنيا، لأن هناك وجوداً آخر للأشياء لن تستقيم لنا الحياة، ولن نعرف ما فيها من عمق وثراء، إلا إذا اهتدينا إليه، وأدركنا أسراره، ونفذنا إلى رؤية الاشعاع الصادر عنه. لقد رأى ما رأى، وعرف ماعرف، فامتلأ قلبه وهجاً أضاء له طريق العبور إلى تلك الأنثى، التى لا يلحق جمالها الذبول، ولا يلحق شبابها الهرم أو العجز، ولا ينضب حبه لها أو حبها له.

قلت لبدور بأن الأغنية تذكرنى بحديث ياقوت عن رجل يمشى فوق الماء، ويأكل العسل من أفواه الثعابين، ويعزف مزماره فتورق الصخور وتتبعه الأشجار. ومعنى ذلك أن ياقوت لا يرى عشيقته السرية فقط وإنما يرى أيضاً رجالاً أسطوريين لا يظهرون إلا له.

- ليس ياقوت وحده من رأى ذلك الرجل، فما أكثر الذين رأوه يمشى في قاع البحيرة ويتجول في شعابها

المرجانية يعزف مزاميره للأسماك والمحار. إنه سيد الكائنات التى تعيش معنا ولا نراها.

- وهل تصدقين هذا الكلام ؟

- نعم، ولكن الإنسان يحتاج إلى بصيرة الشعراء ليرى ويسمع أبعد مما يرى البصر وتسمع الأذن. ألا تؤمن أنت بذلك ؟

- إننى لا أملك بصيرة الشعراء ومع ذلك أستطيع أن أرى الآن أقماراً وحدائق وأنهاراً لا تستطيعين أنت رؤيتها مهما كانت بصيرتك بالغة النفاذ والقوة.

- ولماذا لا أستطيع ؟

- لأنها لا تسكن مكاناً "آخر إلا عينيك.

- انك لا ترى إلا ما تحب أن تراه.

وذلك أيضاً ما يفعله ياقوت. إنه يرى ما يحب أن يراه حتى لو لم يكن موجوداً. لعله أراد أن يبقى وفياً للشعراء القدامى الذين يؤمنون بأن للإلهام وادياً اسمه وادى عبقر، يستعيرون شعرهم من غناء كائناته التى لا يراها ولا يسمعها إلا الشعراء. أو لعل بدور أرادت أن تريحنى من عناء التفكير في علاقتها به، فاخترعت له عشيقة تنتمى إلى عالم

الجن. نظرت إليها وهى تستند إلى الأكلمة المرقشة بالأشجار والأزهار والعصافير، فبدا وجهها وادعاً، بريئاً، مثل حقل من الغناء. إننى أظلمها بمثل هذه الأفكار، وأظلم نفسى عندما أتردد في الاعتراف من جميل عطاياها. طردت من رأسى نساء الجن، والكائنات المجهولة والمعلومة، وقررت أن أبدأ منذ الآن تنفيذ قرارى بأن أكرس حياتى لها، وأسكن بها هذا البيت الذى كان ديراً لعبادة القمر. سوف لن أجد قمراً أعبده أجمل منها. وسأجعل من هذا المكان ديرا لعبادتها. لن أنام هذه الليلة وسأعتبرها ليلة عرسنا. سأكون حريصاً على أن أهتبل كل دقيقة أقضيها معها، وأعتبر أن أية لحظة أنامها إهدار وتبديد لهذا الزمن الفاخر الذى لا يشبه الأزمنة الأخرى. إننى أخاف خديعة الليل، وأخشى أن أنام وأستيقظ فأجد أن هذا الليل قد سرقها منى. خوف لا تبرير له، ولكنه يختفي في طوايا الذات المغدورة دائماً، المثقلة بندوب قديمة صنعتها رماح تخرج من قلب الظلام. عادت الرغبة موجعة، حارقة، لافحة، تسوقنى إلى ممارسة الحب معها. وكأن هذه الليلة هى آخر الليالى، وكأن وليمة الفرح الباذخ هذه، هى العشاء الأخير. كأننى لن أعيش لأراها غداً.

وفوق حشية القش المحاطة بالأشجار والزنابق والطيور المرسومة فوق الأكلمة، رحلنا. عاد المطر إلى الهطول. عنيفاً، قوياً، صاخباً، عاد إلى الهطول. تركنا هسيس الأحطاب في موقد النار يتصدى وحيداً لهزيم الرعد وعواء ضباع الريح، وبكاء الأشجار تحت نوافذ البيت. تحولت حشية القش إلى بساط سحرى، يخترق بنا المطر والضباب، ويحلق عالياً فوق القمم التى يغطيها الثلج النقى اللامع البياض. ويمضى ليجتاز بنا جبال السحب التى يجلس فوقها ملائكة شداد، يديرون رحى كبيرة تصنع الرعد، ويتقاذفون بشهب تصنع البرق. تعبر بنا درباً لبنياً مرصوفاً بالنجوم ومسقوفاً بأجنحة الملائكة الذين يحرسون بوابات السماء، يفضى إلى مروج مضيئة خضراء، نتوقف هناك لنحضر الأعراس التى تقيمها الأعشاب والزهور، ونسمع الأغانى التى تنشدها الأشجار، ونلتقط أقراص العسل من مناقير العنادل، ثم نمضى في رحلتنا عبر أفلاك ومجرات، حتى نرى كوكباً بالغ الصفاء والبهاء، يخفق بأضواء الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والزمرد والمرجان التى تزين عرش الإله

الحب، نخر عند قدميه ساجدين، نلثم الأرض ونؤدى له صلاة الحمد والشكر.

لم تكن ممارسة الحب معها إثارة وشبقاً، ولم تكن طقساً جنسياً ينتهى بانطفاء تلك الرغبة. كانت اتحاداً وتلاحماً مع سر الدهشة وجذور الفرح. ينسكب جسمها بين ذراعى لحنا أحتسيه بكل نبض القلب وخفق الروح وعطش الخلايا. أشرب ولا أرتوى. تنتهى المعاشرة فيتجدد الشوق إلى معاشرة أخرى. وتتحول الرغبة إلى نجمة لا تنطفئ حتى تضئ مرة أخرى. فلم نكن سوى جسدٍ مقسومٍ إلى اثنين يحقق الآن التحامه واكتماله. تجربة جديدة، ثرية، مبهرة، لم أعرف لها مثيلاً فيما سبق من تجارب، حتى في أول معرفتى بالشهوة وبداية اكتشافي لأسرار الجنس وسطوته. كأننى أختزن في جسمى أجساداً عطشى كلما ارتوى واحد منها ازداد الاخر عطشاً.

ولا أدرى إن كان ما أحسست به نوماً في ذلك الهزيع الأخير من الليل، أو هو مجرد خدر لذيذ أثقل الأجفان والبدن. فقد جاء الصباح سريعاً يوقظنى من غيبوبة الفرح. فتحت بدور شباكاً، فشعشع النور وامتلأت الغرفة بهدير

الحياة الذى نحس به قبل أن يقتحم بضوضائه مداركنا. يأتى ذلك الهدير فيوقظ حواسنا ويرغمنا، مهما كان حظنا من النوم، على أن نهجر مخادعنا. رفعت الأغطية متثائباً، أنشر ذراعى في الهواء وأفتح بجهد عينين يثقلهما النعاس، حاولت الوقوف فلم أستطع. عدت إلى الاستلقاء ملتحفاً بالأغطية. كانت بدور قد استيقظت قبلى، اغتسلت وأدت تمرينها الروحى وارتدت برنسها وجاءت تمد يدها، تعيننى على النهوض قائلة:

- قم لتشاهد أجمل صباح رأيته في حياتك.

أعرف أن مشهد شمس تشرق بعد عواصف المطر شىء يبهج القلب والبصر. ولكن رأسى ثقيل وجسمى يمتلئ ارتعاشاً وبرداً. أدركت أن أمطار اليوم السابق التى سخرت منها ومشيت هازئاً أتحدى حوافر خيلها، قد جاءت اليوم تعاقبنى وتزرع بردها في عظامى. سألت بدور أن تبقى بجوارى لأننى لا أريد أن أترك هذا المكان ولا أرغب في الانتقال إلى أى مكان أخر، وإذا كان الأمير المؤسس لديانتهم الجديدة قد عاش زاهداً، ناسكاً، فسأقوم منذ اليوم بإحياء سنته، وسأبقى زاهداً ناسكاً لا أغادر هذا الدير. ولكن بدور

أرغمتنى على النهوض لأن بقائى نائماً فوق الأرض لن يزيدنى إلا مرضاً. لم تستطع بهجة الصباح الجميل أن تمنع عنى ارتجافاً مضى يزداد شدة وعنفاً، مع كل خطوة أخطوها. ركبنا قارباً أوصلنا إلى وسط المدينة حيث افترقنا. وقفت أشيعها وهى تمشى بمحاذاة بناء مسيج بالأشجار، وقبل أن تغيب خلف انعطافته التفتت وابتسمت، رفعت يدها مودعة فرفعت لها يدى، وبخطى واهنة مشيت باتجاه القصر. دخلت إلى غرفة النوم وارتميت فوق السرير. جاءت نرجس القلوب تسألنى عما حدث. رأتنى أرتعش مرضاً وسعالاً ولا أقوى على الكلام فأحضرت لى مشروباً ساخناً من رحيق الأعشاب. انسكب في جوفي دون أن يسكت الرياح الباردة التى تهب في صدرى. أويت إلى الفراش ودخلت في نوم مضطرب تملأه الكوابيس. نتف من عوالم قديمة تستيقظ في ذاكرة الحلم. نساء عرفتهن في أماكن مختلفة، وعبر مراحل متفاوتة من العمر، يتجمعن الآن حول سريرى ويحاصرننى بأعين زجاجية ورؤوس تتدلى منها الأفاعى. أرى أبى وأمى يتعاركان وسط خيمة تضربها الريح، منصوبة في الخلاء، يشتد هجوم الريح، وتطير بهما الخيمة في الفضاء بينما هما

يواصلان العراك. حقل ألغام يتفجر وينشر دخاناً كثيفاً أسود ساخناً يملأ الذاكرة برائحته الكريهة. استيقظ مذعوراً واحاول فتح عينى فلا أستطيع، وكأنهما مختومتان بالشمع. أشعر بيد تتحسس جبينى وأسمع صوتاً يدعونى أن أغمض عينى، فأظنه الشيخ الصادق يريدنى أن أرى البياض، أرفض أن أرى شيئاً، ثم أعرف أن الصوت هو صوت نرجس القلوب تسألنى أن أواصل النوم لأننى ما زلت بحاجة إلى الراحة. أضع رأسى فوق الوسادة، و لكن فقيه المدرسة القرآنية يطردنى من حدائق النوم، يأتى حاملاً سيخاً من الحديد المحمى بالنار يتجه به نحوى، يريد معاقبتى لأننى لم أحفظ سورة الإسراء والمعراج. أجلس في سريرى هارباً من عقابه، ويأتى الصوت الأنثوى يطالبنى بالاستلقاء والراحة. أنام قليلاً فيضعون رحى ثقيلة فوق صدرى، تدور وتسحق عظامى، أرى نفسى أتحول إلى دقيق، فأقوم مذعوراً لأجد أن الطبيب حسان جاء بمراهم يدلك بها جسمى.

أطياف ورؤى كثيرة، مضطربة، مشوشة، كانت تزورنى وتلازمنى خلال ستة أيام من المرض، وعندما تعافيت في اليوم السابع أدركت وأنا أحس بالخجل أن اسم

بدور كان يتردد طوال الوقت في هذيانى. ليس فقط أثناء النوم وإنما في لحظات اليقظة أيضاً. أسأل عنها وأطلب أن يأخذونى إليها. كنت قد ركضت كثيراً في فضاءات الحلم وراء وجهها وهو يظهر ويختفي ويقترب ويبتعد ويشرق ثم ينطفئ. ولكننى لم أدرك إدراكاً واضحاً انها زارتنى أثناء مرضى، إلا الآن وأنا أستحضر ما مر بى. أذكر كل تفاصيل الزيارة. جاءت إلى هنا وجلست على هذا الكرسى الذى تغطيه القطيفة الزرقاء، بجوار رأسى، قائلة بأنها عرفت بمرضى فأتت تحمل لى دواء ممزوجاً بعسل النحل الذى يربيه والدها في حديقة البيت. سألتها أن تنتظرنى حتى أرتدى ملابسى وأذهب معها، لأننى لم أعد أطيق فراقها، أو البقاء بعيداً عنها. قلت لها ذلك أمام نرجس القلوب التى كانت تجلس بمحاذاة السرير، على الجانب الاخر منه، وفي يدها كوب ماء ممزوج بالأدوية تريدنى أن أشربه، وبجوارها وقف الطبيب والاسكافي. لم أكن واعياً لحظتها لما أقول، أو مدركاً لم تحمله كلماتى من مهانة لنرجس القلوب. ولا أدرى كيف أقنعتنى بدور بالبقاء في سريرى حتى أتماثل للشفاء. توقعت بعد أن تعافيت أن أرى الأميرة تأتى غاضبة تطلب

تفسيراً لما قلته. أدهشنى أنها لم تقل كلمة واحدة حول هذا الموضوع، ولم أجد في سلوكها ما يوحى بالغضب أو الاحتجاج. كانت تقبل نحوى باسمة الوجه والعينين، تخطر في مشيتها الأميرية وأثوابها الزاهية الألوان كعرجون من الضياء. تطعمنى وتسقينى وتسكب حنانها في مهجتى فأحس بالخجل لما بدر منى. وعندما أردت أن أذهب لأباشر عملى، أبقتنى في السرير لكى لا أصاب بانتكاسة تعيد لى مرضى. استجبت لحدبها وعنايتها، وبقيت ملازماً غرفة النوم لمدة أيام ثلاثة، لا أفعل أثناءها شيئاً سوى الاستماع إليها وهى تقرأ لى أشعار المتصوفين ممن اتصلوا بأسرار الكون، واهتدوا إلى حقائقه، واكتشفوا بهاءه الكامن في أنفسهم. وكنت وأنا أسمع الأشعار التى تقرأها، وشذور الحكمة التى تنثال من شفتيها، أسأل نفسى كيف سأقوى على تنفيذ القرار الذى اتخذته بالانفصال عنها، والانتقال من هذا القصر إلى الإقامة في الدير القديم بصحبة بدور. لا شك أن نرجس القلوب قد سمعتنى طوال هذه المدة أهتف باسم بدور، ورأتنى أتعلق بأهداب ثوبها عندما جاءت لزيارتى، فهل تراها اعتبرت ذلك كله مرضاً وهذياناً لا يستحق أن توليه اهتماماً. ليتها تأتى

الآن غاضبة، تطردنى من هذا القصر، وتعفينى مما أحس به من كدر وحرج.

انتهت أيام الراحة، وجاء الاسكافي جلال الدين يرافقنى إلى الديوان، حيث أشرفت على مراسم الاحتفال بإرسال عدد من المبعوثين إلى خارج البلاد، يحملون لؤلؤاً ومرجاناً يقايضونه ببضائع من البلاد الأخرى. خرجنا أمام القصر لتوديعهم وهم يرحلون برفقة حراس يؤمنون لهم الطرقات، ورجعنا إلى الديوان لأسمع جلال الدين يقول:

- كنت تردد كثيراً اسم بدور أثناء مرضك.

انتفضت مداركى تعلن حالة استنفار واستعداد لخوض المعركة القادمة. هاهو يفتح الآن باباً لم أكن أجد ما يكفي من الشجاعة لأن أفتحه بنفسى.

- لا بد أنه اسم إنسان عزيز تركته خلفك قبل أن تأتى إلى هذه المدينة.

أتراه يقول ذلك متخابثاً، متجاهلاً ما رأى وسمع عندما جاءتنى بدور. وأراد أن يسلك طريقاً ماكراً لمعرفة حقيقة العلاقة التى تربطنى بها. هل أجاريه في أفكاره واتخابث مثله قائلاً بأنها مجرد ذكرى وفدت على مرضى من عالم

قديم. أم تراه صادقاً فيما يقول، لا يعرف شيئاً عن بدور ولم يحضر زيارتها، وإننى تحت تأثير الحالة المرضية تصورته موجوداً. رأيت أن أتجاهل ما قال وأبحث عن مدخل آخر للحديث عن هذا الموضوع.

- عرفت أن هناك تقليداً كان سائداً في المدينة، يبيح لنسائها الاتصال بالأمير، التماساً للبركة وطمعاً في إنجاب أطفال منه.

- إنه تقليد بائد انتهى بانتهاء الديانة القديمة ولا سبيل إلى إحيائه.

أوصد الرجل في وجهى هذا الباب، وأضاع فرصة هذا التفسير المدهش الجميل الذى هيأت نفسى لأن أقوله لهم، وهو أن المرأة جاءت ترتجى طفلاً يرث أسرار الرجل الذى قطع صحراء المهالك. أدركت أن المهالك لم تنته من طريقى بعد، وانه لا أحد سوى نرجس القلوب من لها حق أن يعرف هذا الموضوع. سأذهب حالاً إليها، وسأكون صادقاً معها، فأخبرها بكل ماحدث. وجدتها تعانى إحدى نوبات الوحم، وقد أحاط بها الطبيب والممرضة. تقدم بها الحمل، وتكورت بطنها، وصار الجنين عبئاً يصيبها بالاعياء. كان الطبيب

يوصى الممرضة بأن تبقى دائماً بجوارها، فلا تدعها تقوم بأى عمل يتعبها. أدركت وأنا أقف منفعلاً أمامها، إننى لن أستطيع أن أفاتحها في مثل هذا الموضوع قبل أن تنتهى من وضع مولودها.

- إذن فأنت تحب اسم بدور.

تظاهرت بأننى لا أفهم ما تعنيه، فأضافت:

- لم يكن على لسانك إلا هذا الاسم طوال أيام المرض، تصورت أنك تريد أن نسمى به المولود إذا كان أنثى.

أدهشنى أن تقول هى أيضاً هذا الكلام وكأنها لا تعرف صاحبة الاسم.

- أليس هذا هو اسم المغنية التى جاءت تزورنى أثناء مرضى ؟

- لم يأت أحد بهذا الاسم لزيارتك.

تنفست بعمق وارتياح وأنا أكتشف أن تلك الزيارة التى تملأنى بإحساسات الحرج والخجل، لم تكن إلا حلماً، والعسل الذى جاءتنى به ليعيد لى عافيتى، لم يكن إلا هدية تلقيتها منها أثناء النوم وليس أثناء اليقظة. إنها تعرف كيف تكتم

أسرارها وتصون حبها. حاولت بطريقة لا تسىء إلى كبرياء الأميرة، ان أسألها إن كانت تذكر تلك المغنية التى جاءت إلى القصر لاحياء العيد الألفي لإعادة بناء المدينة. ولم أشأ أن أبدى تعجباً أو ضيقاً عندما قالت بأنها لا تعرف مغنية بهذا الاسم، ولم ترها تدخل القصر، أو تغنى في ذاك الحفل. قلت لنفسى بأنها امرأة تقابل بشراً كثيرين، وتملأ ذهنها بصورة الطفل القادم، فما عادت تستطيع أن تذكر كل الأسماء وكل الوجوه. تركت القصر وذهبت أتسقط أخبار بدور وأبحث عنها بين المغنين الذين يشاركون في إحياء الاحتفالات، لم أجدها، ولم أعثر على أحد يعرفها. أثار هذا الغموض قلقى، فذهبت في عتمة الغروب أطرق باب بيتها. لم أسمع رداً فطرقته بقوة لكى أرغمها على الخروج إذا كانت لسبب لا أدريه تخفي نفسها عنى. خرجت من الباب المجاور امرأة لا أعرفها، تحمل طفلاً رضيعاً في حضنها، وتبدى انزعاجاً من سلوكى. ألقيت للمرأة بكلمة اعتذار، ورجعت أنتظر أن يحين الموعد الأسبوعى للقائنا لكى أعرف على وجه اليقين ما حدث لها. جاء ذلك اليوم فذهبت مبكراً إلى الدير القديم. لم أجد أحداً، فأخذت من مخزنه شراباً وجلست على عتبة الباب

أنتظر قدومها. انتظرت طويلا دون أن تأتى. جاء مع نهاية النهار النوتى الشيخ يسوق أمامه العتمة والظلام. سألته إن كان قد رآها في الأسبوع الماضى عندما أعاقنى المرض عن لقائها. قال بأنه لم ير أحداً يأتى إلى الدير أثناء غيابى. أفهمته أن المرأة التى أعنيها هى ذات المرأة التى كان يراها معى كلما جئت إلى هذا المكان. وعندما قال بأنه لا يتذكرها، وجدت نفسى لأول مرة في هذه المدينة أفقد كل سيطرة على أعصابى وأرفع صوتى غاضباً:

- كيف لا تذكرها وأنت الذى جئت إلى الشرفة مبهوتاً تستمع إلى غنائها عندما أحضرت لنا سمكاً في أول يوم نأتى فيه إلى هذا البيت.

- تخذلنى أحياناً ذاكرتى فلا تلمنى إن لم أذكرها.

- استحضر عقلك الغائب أرجوك. ألا تذكر نزهتنا فوق القارب ليلة أعياد القمر ؟

- نعم، أذكر أنك كنت سعيداً بتلك النزهة، مستغرقاً في تأمل ومناجاة الطبيعة.

- ألم تكن هى تجلس بجوارى فوق القارب ؟

- هناك بشر لا يظهرون إلا أمام أصحاب الأسرار من أمثالك.

تركته وذهبت حانقاً. إننى لا أملك الآن عقلاً أفكر به، وأهتدى عن طريقه، إلى تفسير هذه الأحاجى. هل كانت تلك الحياة التى عشتها مع بدور مجرد حالة سرابية ابتكرها ذهن أدمن معاشرة الأساطير والأوهام؟ وهل كنت بحاجة إلى أن أصنع وهماً أهرب إليه من مدينة غفل عنها الزمان وهى راقدة وسط سحائب الفرح؟ أم هل تراها كانت حقاً امرأة أثيرية، لا تظهر لأحد غيرى كما كانت تقول عن امرأة ياقوت الشاعر؟ إننى لا أستبعد أن يكون ما حدث مؤامرة أحكم الشيخ ذو اللحية الحمراء حلقاتها، يحمى بها المدينة من حماقتى، ويمنع بها حدوث أزمة في القصر. عرف ما انتويت عمله، فذهب إلى بدور يسألها أن تختفي من حياتى، ويسأل الآخرين أن ينكروا معرفتهم بها. وأيا كان الذى حدث، فإن هناك حقيقة واحدة أعرفها تمام المعرفة، وهى أن بدور لم تكن وهماً، وإنما وجوداً حقيقياٍ لا سبيل إلى نقضه، عاشرتها وامتزجت بها روحاً وبدنا، ضوءاً وظلاً وعطراً. فكيف يمكن أن يكون وهماً ما شاركت كل الحواس في الاحتفاء به

والارتواء منه. هل هو الجنون ؟. كيف يداهمنى الجنون وأنا محصن بعرائش الورد ومسك الأرض الذى يعبق على مدى الفصول الأربعة. لعلنى أجد جواباً لدى ياقوت الشاعر. إنه الرجل الوحيد الذى لا يستطيع أن ينكر معرفته بها وعلاقة الفن التى بينهما. ذهبت إليه حيث يقيم. اختار شريطاً من الأرض يدخل في ماء البحيرة، وابتنى فوقه كوخاً، وزرع مشاتل نعناع وأشجار ورد وقرنفل وحناء، واعتزل الناس متفرغاً لمغازلة حبيبته المجهولة، فلا يظهر إلا مغنياً أو عازفاً في الاحتفالات الكبيرة. دعانى إلى الجلوس فوق محراب خشبى يلتصق بحافة البحيرة، وجاءت غزالته ترتع بجوارنا، كان الوقت صباحاً، والهواء منعشاً، أحببت أن أبقى قليلاً في هذا الجوار العامر بالسلام والهدوء. سألته عن معنى النجمة الموشومة بالحناء على ظاهر يده، فقد رأيت وشماً مثلها على ظاهر يد بدور. قال انها نجمة يضبط بها حركته مع حركة الافلاك الدائرة في أبراجها، ويراها فلا ينسى وهو يمشى فوق الأرض، انتماءه إلى الموطن الأصلى للبشر. رأيت كأن نجمة الحناء استعارت شيئاً من بهاء النجوم فبدت مشعة متألقة. سألته إن كان يذكر مغنية اسمها بدور، تحمل

في ظاهر يدها وشماً مثل وشمه. رأيته يرفع رأسه مستحضراً صورتها، فأعطيته أوصافها، وقلت له قصتى معها، وقصة الآخرين الذين أنكروا معرفتهم بها، وسألته أن يعيننى على الاهتداء إليها، لأننى حائر لا أعرف سبباً لاختفائها، ولا داعياً يدعو الناس إلى نكرانها، تدفقت في الحديث عنها، وكأننى أريد بذلك تأجيل الاستماع إلى جوابه الذى أخشى أن يأتى مشابهاً لأجوبة الآخرين. لكنه أبلغنى بأنه يعرف تماماً المرأة التى أقصدها، وأنها تأتى دائما إلى كوخه تستمع لأشعاره وألحانه التى تحبها. جاءت إجابته ترسل في سمائى أسراباً من طيور الفرح، التى سرعان ما اختفت عندما أضاف، انه يعرف نساء كثيرات مثلها، لا يظهرن إلا لمن أحببن، ويمتنعن عن الظهور أمام الآخرين. وهو يرى أن ما حدث لى مناسبة للغبطة والفرح، لأن من أعطاه ا بصيرة كبصيرتى، وألهمه حب امرأة لا تكشف عن نفسها إلا أمامه، يجب أن يكون شاكراً" هذه النعمة. وأبلغنى في نهاية اللقاء، إنه سوف ينقل لها رسالتى عندما تأتى لسماع وحفظ ألحانه، وسيرفع أى التباس وقع بينى وبينها. مؤكداً بأن اختفاءها ليس إلا دلالاً تختبر به حبى،

وتعرف عن طريقه مقدار شوقى إليها. لم أجد في كلماته أى عزاء. إنه يهيم بأودية الجن وظن أننى مثله أريد أن أهيم بها. إننى أعرف يقيناً أن تلك المرأة التى سافر وراءها القلب ولم يعد، ليست امرأة مثل نسائه الوهميات، المنتميات إلى عالم الأطياف، والمصنوعات من ذرات الضوء والهواء. إنها امرأة من عالمنا، تغنى في الأفراح، وتعشق الزنابق والورود، وتحب الاغتسال عارية في مياه الينابيع أيام الربيع، لن أتوقف عن البحث حتى ألقاها، وسأعرف عندئذ القصة التى تكمن وراء اختفائها. لم تفلح زيارتى إلى بيت الشاعر في أن تسكت مواجعى، ولم أجد إنساناً أخر يمكن أن يضىء السبيل الذى أظلم أمامى. بقيت فيما تلى ذلك من أيام مشغولاً بهذا اللغز الذى أنبت حسكاً يجرح روحى، ويعطل قدرتى على الاستمتاع بمظاهر الجمال من حولى، فما عدت كما كنت سابقاً أتجول مبهوراً بتراقص الأضواء والظلال فوق الواجهات المزينة بالنقوش وعرائش الكروم، متأملاً جمال الحدائق والحقول، وبهجة الماء الدائر في السواقى. صرت أذهب لأشاهد الاحتفالات بقلب غير ذاك القلب الذى كان يركض نحوها، ويمد يداً لالتقاط الفرح الطالع كالزهر من

حلقات الراقصين. لم أعد أرى فرحاً ولا زهراً، أو أمد لأحد يداً أو قلباً، وإنما أرفع بصراً يائساً متعباً أبحث عن امرأة تحنى غدائر شعرها فوق عود مرصع بالأصداف، وترسل غناء يضىء قناديل الفرح داخل الصدور. أعاود مساءلة النوتى الشيخ فلا أفوز بشىء جديد، وأذهب مرة أخرى إلى بيتها لأجد بيتاً خالياً مهجوراً لا يشبه البيت الذى رعى نبتة حبنا حتى ازهرت، ولا أرى في حديقته توتاً ولا عشباً ولا سمكاً ولا حريراً ولا نحلاً ولا عسلاً، فأنكر أن يكون البيت بيتها. أهرب منه ولا أفكر في العودة إليه. وكنت أرى في الطرقات نساء يشبهنها، فأذهب إليهن راكضاً، باسطاً كف الأمل والرجاء، لأكتشف عند اقترابى منهن، انهن نساء غيرها، فأعود أواصل بحثاً عبثياً لا طائل منه ولا جدوى.

قالت نرجس القلوب وهى ترانى أجلس صامتاً إلى مائدة الإفطار، لا أكاد أقوى على مضغ الطعام:

- تبدو مهموماً عازفاً عن الأكل، فما الذى يضايقك ؟

كيف استطيع أن أبوح لها، بأننى واقع في أسر امرأة، أذاقتنى أقراصاً من عسل السعادة لم أعد أقوى بعدها على استملاح أى طعام مهما كان دسماً، شهياً، كطعامها. كيف

أستطيع أن أقول لها أيضاً، إن هذه المرأة اختفت فجأة من حياتى، وإننى أتهم كل من في القصر بأنهم شركاء في تدبير مؤامرة اختفائها. ظلت هذه الفكرة تسيطر على ذهنى، وأجد فيها تفسيراً وحيداً لما حدث، وظلت مهمتى هى أن أجد خيطاً يكشف السر، ويفضح المؤامرة. ثم بدأت يوماً وراء يوم أتخلى عن هذه القراءة التآمرية التى لم أجد دليلاً يؤكدها. وأفكر فيما إذا كانت حقاً مجرد كائن لا ينتمى إلا إلى عوالم الحلم والذاكرة المغموسة في الأساطير. استعدت اللحظة التى رأيت فيها بدور لأول مرة. وكيف تهيأ لى، بأن هذه المرأة لا يمكن إلا أن تكون إبداعاً خاصاً من صنع المخيلة، وكيف أحسست أننى أتلقى نفحة مباركة من الكشف والالهام، تجعلنى قادراً على اجتراح هذه المعجزة، وابتكار امرأة لها مواصفات ومقاييس لا تناسب إلا قلب صانعها. امرأة تحمل ملامح امرأة الحلم، وبهاء عينيها، وبهجة حضورها، وثراء أنوثتها، وكل مظاهر الجمال التى لا يمكن أن تتوفر لامرأة واحدة في الدنيا، إلا هى. تذكرت أيضاً أحاديثها، وأغانيها التى تجعل من أسرار الكون موضوعاً لها، والأشياء التى تختفي خلف الأشياء التى نراها ونسمعها، والتى لها وجود

حى نابض لا يراه ولا يحس به إلا من ملك شفافية الحلم والرؤيا. فهل كانت تشير بتلك الأحاديث والأغانى إلى نفسها؟ وتكشف بها عن هويتها الأثيرية ومادتها المصنوعة من جوهر الوجود وعناصره التى لا تدركها الحواس؟ وهل كانت رؤيتى لها، وحياتى معها، شيئاً من انجازات البصيرة وشفافية الرؤيا؟ وهل معنى اختفائها إننى لم أعد أ ملك موارد روحية تعيننى على النفاذ إلى عوالمها، وتمزيق السجف التى تحجبها ؟.

كنت أجلس وحيداً في الشرفة التى شهدت لقاءاتنا، أستمع إليه هدير شلالات الماء، وأرقب الضوء المذاب في الأفق لحظة الغسق، وأستقبل هواء بارداً منعشاً يهب من ناحية الجبال، محملاً بعبير أشجار مسك الليل، مستغرقاً في التفكير بسر احتجابها، قائلاً في نفسى بأن الجمال الهارب من هذا المشهد، لن يعود إليه، إلا إذا عادت بدور تعزف عودها وتنشر ضوءها، وتبعث في هذه اللوحة المتعددة الألوان حياة ومعنى. عندما أحسست بقلبى بغتة يخفق ذلك الخفقان الذى يسبق حضورها، ويبشر بدنو مجيئها. تهيأت لاستقبالها، وأنا لا أكاد أصدق حدسى ومشاعرى. أقف ذاهلاً أرنو إلى لباب

الذى يفضى إلى الشرفة، وأحس كأن الكون كله توقف عن الحركة وبقى صامتاً، ينتظر معى ظهور المعجزة. مرت لحظات قبل أن ينبثق في قلب الصمت والسكون صوتها، متدفقاً بالغناء، ومصحوباً بأنغام العود. أرهفت سمعى جيداً لكى لا يكون هذا الغناء مجرد اجترار لذكرى جلساتها معى. تأكدت بأننى لست حالماً ولا واهماً، وأن بدور موجودة في هذا المكان تعزف عودها وتغنى ذات الأغنية التى تتحدث عن الأشياء الكامنة خلف مظاهر الأشياء. تطلعت شمالاً ويميناً، داخل الشرفة وخارجها، دون أن أراها. كان الغناء قريباً فذهبت أطوف غرف البيت، غرفة غرفة، وأفتش عنها بين أركانه وزواياه، وخلف أمتعته وقواربه وصناديقه. لم أجد أحداً فرجعت إلى الشرفة أنصت حائراً إلى غنائها، محاولاً أن أهتدى إلى مكانها السرى. تركت البيت وذهبت أبحث عنها بين الأشجار، بأمل أن تكون قد افترشت الأعشاب، وجلست تعزف وتغنى تحت هذه العرائش التى تتسلق الجدران. بدأ الغناء يبتعد ويتلاشى. وقفت أمام مدخل البيت أهتف باسمها وأناديها لعلها تسمع النداء. اختفي الصوت واختفت أيضاً بقايا أشعة الشمس التى كانت تلون

السماء. هبط الظلام وعاد النوتى إلى البيت مهرولاً يسألنى عن سر هذا الصراخ. تركته وذهبت أركض عبر الحقول والظلام. ارتطمت برجل انبثق فجأة واعترض طريقى. كان ياقوت الشاعر يستوقفنى قائلاً، إنه التقى منذ لحظات ببدور وأبلغها رسالتى، وأخبرها بمدى عشقى لها وعذابى لأننى لم أرها. وهو لم يتركها إلا بعد أن أبلغته بأنها ستأتى هذا المساء لزيارتى. ويسألنى إن كنت قد التقيت بها. قلت له بأننى سمعت غناءها دون أن أراها، وصرت أبحث عنها فلم أجدها، حتى تهيأ لى أن ما سمعته لم يكن إلا وهماً وخداعاً للحواس. أفهمنى ياقوت بأنها تفعل ذلك لأنها تحبنى، وأرادت أن تمنحنى أثمن شىء لديها وهو هذا الصوت الذى احتوى جوهر جمالها وشخصيتها. رأتنى مفتوناً بجمال مظهرها، فأرادت أن تحررنى من هذا الافتتان الذى يسلب الإنسان حريته وإرادته. حجبت جسدها عنى، وأخفت مظاهر أنوثتها، فلا أستطيع أن أرى غير جمالها الحقيقى، الذى يجعل حبى لها تحرراً وانعتاقاً، وعلاقتى بها مصدر طمأنينة وسلام. سألته، ذاهلاً عن الكلمات التى قالها، موقناً أن غناءها لن يطفئ شوقى لسماع النشيد الذى يعزفه جسمها كله، إن كنت

سأراها في صورتها الكاملة مرة أخرى. أجابني قبل أن يختفي في الظلام بأنني سأراها عندما أحقق أعلى مراتب التواصل الروحي معها.

تعودت بعد ذلك على سماع صوت بدور في أوقات مختلفة من الليل والنهار، وفي أماكن غير المكان الذي سمعت فيه الغناء لأول مرة. صرت أسمعه وأنا أعمل بحدائق القصر، أو أتجول في شوارع المدينة، كما أسمعه وأنا أزور الدير القديم. لم يعد قريباً وقوياً كما كان ذلك المساء. صار الآن يأتي وكأنه ينبع من مكان في السماء، كأنها اختارت أن تجلس فوق سحابة هائمة في الفضاء، تعزف عودها وترسل غناء لا يسمعه أحد سواي. لم أعد أقفز من مكاني، أتلفت شمالاً ويميناً، أفتش عن مصدر الصوت، ولم أعد أجري عبر الحقول هاتفاً باسمها، فقد تعودت على سماعها، وتآلفت مع غنائها وهو يأتي من لا مكان. أيقنت أن طوراً جديداً تشهده علاقتي ببدور، حيث أصبحت تمثل في ذهني حضوراً يمتزج بروح المكان، ويسري مع الهواء الذي أتنفسه. ليكن ما أسمعه مجرد صدى لأفكاري، أو تجسيداً لرغبة ترقد في حنايا ذاكرتي. ليكن نابعاً من نقطة في القلب

أو نقطة في السماء، فقد صار هذا الصوت، بغنائه البعيد، وشفافيته الذائبة في شفافية الضوء، جزءاً أصيلاً وحميماً من حياتى ووجودى، يرافقنى أينما ذهبت، ويسيل في بدنى ممتزجاً بدورة الدم في الأنسجة والعروق. لم يعد يعنينى أن ألقاها أو لا ألقاها، لم يعد يهمنى أن تظهر أمامى بكامل صورتها أو لا تظهر. يكفي أن أتواصل معها هذا التواصل اليومى، المفرح، العميق، الذى لا تخالطه لحظة كدر أو جفوة أو خصومة ولا يثير في نفسى قلقاً، ولا صراعاً بين ما يريده الواجب وما يريده القلب، وأراها تمتزج بمظاهر الوجود وعناصره، وتصبح مصدراً من مصادر بهجته وجماله.

اختفت سحب الكابة التى أثقلت صدرى، وأقلقت هناء الناس الذين حولى، وسببت كدراً لنرجس القلوب التى كانت كثيرة الانشغال بما طرأ من تبدل على حالتى. إنها امرأة لم تعاشر الحزن ولا تعرف لماذا يكون الإنسان حزيناً مثلى. أسعدها الآن أن ترانى أقبل على الحياة معها بروح جديدة، أقرأ لها الكتب التى تحبها، وأصحبها عند المساء في جولات قصيرة لا ترهقها، عبر حدائق القصر. كانت تباشير الربيع تلون الأشجار وتتيح للعصافير أن تواصل الغناء طوال

النهار. فكنت أقطف لها الأزهار، وأطعم معها البجع، وأترنم لها أحياناً بأغنية مما صرت أحفظه من أغانى بدور، دون أن أذكر اسمها أو أعاود السؤال عنها. صرت أقضى وقتاً طويلاً مع نرجس القلوب، استمع إلى أحاديثها عن الطفل القادم، والبرامج التى أعدتها لتربيته وتعليمه، وأرنو إلى وجهها وهى ترسم بالابرة نقوشاً فوق وشاح تنسجه له، فأراه طافحاً بالسعادة. أقبل على محبتها، واجتهد في التسرية عنها، وأترقب بشوق مثل شوقها، الحدث السعيد الذى صار موعده يدنو يوماً فيوماً.

كان جلال الدين قد تفرغ تفرغاً كاملاً لمشروعه مع الحرفيين. يأتى على عجل إلى القصر ثم يذهب مسرعاً، معتذراً عن المشاركة في المراسم التى تقام بالديوان، قائلاً بأن العمل بلغ مرحلة متقدمة تحتاج إلى كل وقته. كان يمتنع عن ذكر التفاصيل مكتفياً بالحديث العام، والتأكيد على أن هناك نتائج باهرة سوف يصل إليها الحرفيون. وكنت أراه يتكلم بيقين عن نجاح مشروعه، ويتأبط مخطوطاً مترجماً عن الصينية يضفي أهمية على الأسرار التى يحتويها، فأتساءل عن النتائج العلمية المبهرة التى يمكن أن يصل إليها بمشغله

وحرفييه ومخطوطاته، وهو على كل هذا البعد من عصر التقنية وثورة العلم. وأحاول أن أبحث في ذاكرتى عن اختراع خطير، تحقق في هذا التاريخ، فلا أهتدى إلى شىء. لعله سيكتشف آلة لقياس الوقت أكثر تقدماً مما توصل إليه علماء بغداد، أو يدخل عنصراً جديداً في صناعة القوارب، أو يقوم بتحسين أدوات النسيج، أو أى شىء آخر ينتمى إلى هذا الزمان، وتحكمه شروط الإنتاج العلمى في هذه البيئة. وكان جلال الدين يرانى فاتر الحماس، لا أبدى اهتماماً كبيراً بما يقول، فينظر نحوى بعينيه الصغيرتين الماكرتين متحدياً، ويمضى معلقاً على وجهه ابتسامة غامضة. لم يكن يهمنى أن يصل الشيخ إلى تحقيق ما يريد أو لا يصل. كل ما كان يهمنى هو أن تبقى هذه المدينة النائية عن ذلك العصر، بعيدة عن أمراضه أيضاً، نظيفة من تقنية العنف، قريبة من منابع الحكمة والبراءة، كما أراد لها صانعها عندما أسقطها في جيب كونى مسحور لا يمر به زمن الصخب والرعب.

لم تمض سوى بضعة أسابيع على هذا الانشغال الدائم بالمشروع، حتى جاء جلال الدين يوقظنى عند الفجر من نومى، ويخرجنى على عجل من القصر، ويقودنى عبر بوابة

الصحراء إلى ذلك الخلاء، الذى ستقام فيه التجربة الأولى. جاء مستبشراً، باسماً، يطفح وجهه بسعادة من اهتدى إلى جزيرة الكنز. قائلاً بلهجة يلونها الحماس والانفعال بأن المعجزة التى كان يحلم بها، ودعى ا أن يطيل عمره حتى يراها، قد تحققت الآن، وبأسرع مما كان يتصور. كان واضحاً مما بدا في عينيه من تعب وارهاق، أنه لم ينم طوال الليل. كنت أريده أن يدعنى أكمل نومى. لكنه أرغمنى على النهوض، بحجة أنه يريد اجراء تجربة أولى يتأكد بها من نجاح الاختراع قبل أن يستيقظ الناس ويتوافدون على المكان. وفي الطريق إلى مشاهدة هذا العرض الأولى، أخبرنى بأنهم أفلحوا في صنع سلاح جديد لم تعهد له الدنيا مثيلاً. قذيفة يقول المهنيون بأن لها قوة تدميرية هائلة، وسوف تتفجر مثل انفجار الصواعق وتصيب الهدف على بعد عشرة فراسخ. لم أصدق ما كان يقوله بانبهار وإكبار. منعت نفسى من أن أبدى فزعاً أو غضباً. منعت نفسى من أن أصرخ قائلاً لماذا الصواعق وقذائف النار ولماذا لا يكون الاختراع أداة بناء بدلاً من آلات الدمار والتخريب. بقيت صامتاً متحصناً بيقينى أن اختراعاً كهذا لم يكن ممكناً أن يتحقق قبل تاريخه برغم

مما مضى يقوله عن التجارب الأولية التى أثبتت نجاحه والتى كانوا يجرونها أيام العواصف الرعدية لكى لا يفزع دويها أهل المدينة. ذهبت أتبعه وهو يسرع الخطى حتى وصلنا إلى المكان الذى تجمع فيه العمال. كان الوقت قبيل شروق الشمس بقليل، وكان الحرفيون يصنعون دائرة حول اختراعهم، يفركون في قلق أيديهم، وينتظرون في برد الصباح مجيئنا. كان ما رأيتهم يتحلقون حوله مدفعاً، بمثل ما وصفته للشيخ في أحاديثنا، له ما سورة طويلة وعجلات يسير فوقها، قاموا بطلائه بمادة فضية، وزينوه بالأصداف، ونثروا حوله أزهاراً ووروداً، جلباً للفأل الحسن، واحتفالاً بهذه المناسبة التى ستكون تدشيناً لعصر الاختراعات العلمية المذهلة. كان المدفع قطعة فنية تستحق "أن تأخذ مكانها في متاحف الفن. وتصورت أن بناء هيكل مدفع بهذا الاتقان والبراعة، هو أقصى ما يمكن عمله في هذه المرحلة. ولكن العامل الذى تولى الشرح، أشار إلى صندوق الذخيرة الموضوع بجوار المدفع، قائلاً بأنهم استعانوا بكتاب صينى عن المواد المشتعلة التى يستخدمها الصينيون، واستطاعوا الاهتداء إلى صنع القذيفة، كما توصلوا إلى إنجاز آلة الرماية

والتحكم في قوة الدفع وتحديد المسافة. كانوا قد وضعوا كومة كبيرة من الأحطاب في الخلاء لتكون هدفاً لنيرانهم، وعبئوا المدفع بالذخيرة استعداداً للاطلاق. تراجعت مسافة إلى الوراء تحسباً لأى طارئ يجعل هذه القذيفة تنفجر داخل مدفعها. أطلقوها فأحدثت دوياً هائلاً عند ارتطامها بالهدف. تعالت الأدخنة وألسنة اللهب وتعالت صيحات الفرح والابتهاج. هرولوا إلى مكان الانفجار يعاينون الهدف الذى أصابته القذيفة وما نتج عنها من دمار. ثم جاءوا لاهثين يهنئوننى باعتبارى صاحب الفضل في إرشادهم إلى هذا الاختراع، ويعانقون بعضهم بعضاً. كان ما رأيته أقوى من أن تستوعبه مداركى في لحظة واحدة. بقيت ذاهلاً، أردد بصرى بين المدفع وبين النار وسحائب الدخان. ما الذى أستطيع أن أقوله أو أفعله الآن ؟. هل أقول لهم أن يوقفوا الاحتفالات، لأن اختراعهم ليس إلا بداية الحريق الذى سيأكل مدينتهم؟ هذه المدينة التى جئت إليها هارباً من قعقعة الحديد، ودوى الانفجارات، ورائحة البارود، في عصر ملتاث، مجنون بتقنيات الحرب وتجارة الموت. ما فائدة ذلك الآن، وما جدوى أن أكون نادماً على ما أفضيت به للشيخ من

أخبار ذلك الزمان. من أين لى أن أعرف أن كلمات الهجاء التى قلتها ساخطاً، متذمراً من أحوال ذلك العصر، سوف تشعل فضوله، وتثير انبهاره، وتدفعه إلى تقليد ومحاكاة ما سمع، حتى يصل إلى اختراع مدفع قبل ميقات اختراعه بمئات الأعوام. إننى ضحية كتب التاريخ، بمثل ما أنا ضحية هذا الفضول الناتج عن رغبة الإنسان في تدمير الذات. انتهى الزمن الجميل، لأن هذا المدفع سوف يفرض منذ الآن منطقه الخاص. وله لغة سوف يجبرهم على الحديث بها. وهو يريد منذ اليوم حاكماً يتحكم في قوته، ويشرف على استخدامه، ويأمر متى تنطلق قذائفه أو لا تنطلق، ومن يملك هذه القوة، سوف تكون له اليد العليا التى تفرض على الآخرين سلطتها وسطوتها. انتهى التكافؤ الذى يضمن العدل ويتيح لجميع الناس حياة متساوية. فليبشروا بقذائف النار تنفجر تحت حجورهم. أفاق أهل المدينة على صوت الانفجار، وانتشرت بينهم أخبار الاختراع الجديد، فتدفقوا عبر بوابة الصحراء يصنعون حشداً هائلاً، ويطالبون بإجراء تجربة جديدة تتيح لهم مشاهدة المعجزة. راقبوا انفجار قذيفة أخرى في الصحراء، وغمرتهم هستيريا الفرح الجنونى. انتهى عصر

السيوف والرماح والفرسان الذين يتصدون للمعارك بصدورهم، وأشرق على الدنيا عصر جديد، هو عصر المدفع الذى يصنع البراكين والصواعق. عادوا يملئون الشوارع رقصاً وغناء وعزفاً على الطبول والمزامير. تركوا أعمالهم وتفرغوا للاحتفال. أيقظ هذا الاختراع جذوة الحماس الوطنى، فصاروا ينشدون الأغانى التى تنقل ذكريات المعارك القديمة، يضربون الطبول وينفخون الأبواق التى تصدر نفير الحرب. أخذت جلال الدين جانباً، أسأله عن فائدة اختراع شيطانى كهذا، جاء يوقظ غريزة الاقتتال التى ظلت نائمة لمئات السنين، وقد كان بإمكانه أن يسعى لإنتاج شىء نافع مثل آلة لكسر الحجارة، أو طحن الحبوب، أو صنع الأحذية، أو حراثة الأرض. تحدث الشيخ بمنطق حاكم من أسياد القرن العشرين، وأرباب صناعة الموت، قائلاً بأنها قضية أولويات، يأتى على رأسها أمن المدينة وحمايتها من الأعداء.

كنا قد وصلنا إلى القصر، حيث سيقام حفل على شرف أصحاب المشروع. جاء موعد الحفل وجاءت دنان الخمر وآلات الطرب وانتشرت في القاعة الكبيرة حلقات الرقص

والغناء ابتهاجاً بهذا العيد. انتحيت جانباً أشرب كأسى صامتاً واستمع إلى نقاش يدور حول أفضل الأساليب لاستخدام هذا السلاح. بدا واضحاً أن الاختراع قد أشعل خيال هؤلاء الناس، وملأ رؤوسهم بالأحلام الدموية. سمعتهم يقولون بأنه صار بإمكانهم اليوم غزو أكبر ممالك الدنيا، وإقامة حكم أوسع مما سعى لإقامته الإسكندر المقدونى، سيقضون إذا أرادوا على الروم والسلاجقة والبيزانطيين وسيبسطون نفوذ دولتهم على الشرق والغرب. وكان الإسكافي أكثرهم ابتهاجاً بهذا الاختراع قائلاً لمن يتحدثون عن الفتوحات بأن ذلك ليس ما تسعى إليه عقد المرجان، فهى مدينة أمن وسلام، وستنام نوماً أكثر هناء وسعادة في ظل هذا المدفع الذى يحرسها. منعت نفسى من الكلام فلم أقل له أن هناء المدينة تبخر في الهواء مع أعمدة الدخان الصادر من قذيفته النارية. كانت نرجس القلوب في آخر أيام حملها، جاءت ترتدى ثوباً وردياً فضفاضاً لم يستطع أن يخفي استدارة بطنها، سألتنى لماذا أبدو صامتاً وكأن هذا الاختراع الذى أسعد الناس لا يسعدنى. أردت أن آخذها إلى حضنى أبشرها بالدمار القادم وأبكى، ولكننى رأيت الإسكافي واقفاً بجوارنا، فكظمت غيظى قائلاً

بأننى لا أستطيع أن أتصور نفسى قائداً عظيماً، يضع فوق رأسه قرنى ثور، ويغزو الأمصار بقذائف النار. وشارك الإسكافي في الحديث معرباً عن يقينه بأنه خير للإنسان أن يكون قادراً على الغزو، من أن يكون مهدداً بالغزو من الآخرين. وأبدى إعجابه بمهارة الحرفيين الذين تحولوا من بناء القوارب، وصناعة القناطر، وصهر الحديد الذى تصنع منه القدور والصهاريج، إلى عمل جليل مثل صناعة القذائف، حيث سيتمكنون من تحضير ألف قذيفة في عام واحد. وسيواصلون جهودهم العلمية لاكتشاف أسلحة أكثر تفوقاً وفعالية. قلت في خاطرى لعلهم سيفلقون الذرة ويستخدمونها في تدمير العالم منذ الآن، فيريحون البشرية من عناء الأزمنة القادمة. كنت قد شربت نبيذاً كثيراً وخشيت أن يدفعنى الشراب إلى ارتكاب حماقة تفسد عليهم هذا الحفل. ضاق صدرى بما سمعت ورأيت فتركت القاعة متسللاً إلى حدائق القصر. كان الوقت ضحى، ومناخ الربيع يعبق بشذا الجنائن. ملأت صدرى بالهواء النظيف، ورفعت رأسى إلى السماء الكبيرة الخالية من السحب، استمد من صفائها عوناً على تسكين هذه الاضطرابات، ومشيت متجولاً بين الأشجار

وجداول الماء. كان كل الذين يشتغلون بحدائق القصر قد تركوا أعمالهم وذهبوا يشاركون في الحفل. أدهشنى أن العصافير سكتت جميعها عن الغناء. فتشت عنها فلم أرها، كانت الحديقة خالية من طيورها التى كانت ترفرف وتصدح طوال النهار. أدركت أن الانفجار الهائل أفزعها فذهبت تبحث عن الأمان في مكان غير هذا المكان. كنت أراقب طاووساً يجر ذيله في كبرياء وأفكر في التحولات التى سوف تطرأ على هذه المدينة بعد الآن، عندما ضجت الحديقة فجأة بالغناء. جاء غناء بدور ينتشلنى من أفكارى ويجعلنى أقف مبهوراً أنصت إليه. لم يكن الغناء هذه المرة يأتى واهناً ضعيفاً قادماً من السماء كما كنت أسمعه في الأيام الماضيات. لم يكن هاتفاً ينبع من القلب، أو يسقط من سقف الكون. كان الغناء هذه المرة يأتى واضحاً قريباً، كأنها تغنى خلف إحدى هذه الأشجار. وكانت تعيد أغنية ياقوت الشاعر عن الاعصار الأصفر الذى خرج من شقوق الجبال يدمر المدينة ويبيد أهلها. بدا غريباً هذا التباين بين ما تثيره الأغنية من مشاعر الحزن والأسى، وبين هذا الجو الاحتفالى الذى يغمر المدينة. لعل بدور أيضاً تنكر هذا الاختراع كما أنكرته، وتراه يشبه

بوادر اعصار يهلك المدينة، أو لعل أفكارى هى التى تجسدت في شكل أغنية حزينة، ولكن الغناء هذه المرة لا يتبعنى أينما ذهبت وكأنه صادر عنى، إنه الآن يبتعد بقدر ما ابتعد عنه، ويقترب عندما أدنو منه. تهيأ لى أن الغناء يأتى من إحدى النوافذ أو الشرفات القريبة. دخلت القصر، وسرت عبر رواق طويل أتبع مصدر الصوت، حتى وجدت نفسى أقف مباشرة أمام الغرفة التى يأتى منها الغناء. كانت هى ذاتها الغرفة المغلقة على أسرارها والمثقلة بالأقفال وأسياخ الحديد. حبست أنفاسى أنصت إلى الغناء، كيف تراها استطاعت اقتحام هذه الغرفة التى يغطيها غبار السنين. كان صوت بدور ينسكب من خلال الباب واضحاً جلياً لا لبس فيه. ألصقت أذنى بالباب زيادة في التأكيد. أكاد الآن أسمع حركة الريشة التى تستخدمها في العزف وهى تنتقل من وتر إلى وتر، واستنشق عطرها الذى تستحضره من رحيق الياسمين. بدأت أطرق الباب وأناديها. واصلت بدور الغناء دون انقطاع. لا بد أنها عرفت على وجه اليقين أن النبع الذى يمنح الإنسان شباباً دائماً هو ما يقفلون عليه هذه الغرفة، فجاءت تستحم بماء النبع وتجلس عارية على ضفافه، تعزف

وتغنى. عاد الشوق إلى رؤيتها يحرق صدرى. ركضت مسرعاً إلى الحديقة حيث ترك العمال معاولهم ومناجلهم وفؤوسهم، وعدت بفأس كبير أستطيع أن أحطم به الأقفال. توقفت لحظة أتأمل الطلاسم المنقوشة على الباب، وأنصت إلى الغناء، وأفكر في نتائج هذه المغامرة. لقد ظل أصحاب القصر جيلاً وراء جيل يحترمون الحكمة التى أمرت بابقاء هذا الباب مقفلاً، ولكن كيف استطاعت بدور النفاذ إلى داخل هذا المكان. لعل للغرفة نافذة أو كوة صغيرة استطاعت فتحها والتسلل من خلالها. وراكضاً صرت أطوف بالأروقة المجاورة فلم أجد إلا الشبابيك التى تطل على الحديقة. وراكضاً ذهبت خارج القصر أتفحص الجدار الخلفي للغرفة فلم أجد جداراً، كان القصر في هذا المكان يتصل مباشرة بالهضبة التى احتوت الجدار حتى صار جزءاً منها. لعلها اكتشفت نفقاً سرياً أو استعانت بالقوى الخارقة للطبيعة على الدخول، ولا سبيل إلى الوصول إليها، إلا باقتحام الغرفة وتحطيم أقفالها. وراكضاً رجعت إلى باب الغرفة وبدأت أهوى بالفأس على اقفاله وأسياخه حتى تفككت، وقفت لاهث الأنفاس انتفض ارتعاشاً ورهبة قبل أن أرفع الأسياخ وأدفع

الباب، فتحت الغرفة فلم أجد أحداً، ولم أر في البداية سوى العتمة. هاجمتنى رائحة رطوبة قديمة يحتويها المكان، اختلطت برائحة العطر الذى تستخدمه بدور، في حين صار الغناء يتدفق أكثر حدة ولوعة، وأكثر غواية وسحراً. كان الضوء الذى تسلل عبر الباب المفتوح كافياً لأن أرى أن ما ظننته ظلاماً لم يكن إلا جانباً من الهضبة. صخور بركانية سوداء تحيط بها الجدران. ورأيت وسط الصخر باباً دائرياً، معدنياً، يغطى ما بدا لى أنه حفرة في الجبل. أدركت أن الغرفة لم تكن إلا بناء يحجب الكهف. كانت الكتابة فوق باب الكهف تحمل تحذيراً مكتوباً بطلاء فضى، بدت حروفه واضحة رغم عتمة المكان، يطالب الأحمق الذى فتح الباب، أن يستفيد من هذه الفرصة الثانية، ويعود من حيث أتى. ولكن الغناء الجميل الذى تدفق مجلجلاً، مغلفاً بالصدى، كان قد استولى على كل مشاعرى فلم أعبأ بالتحذير. كانت أطرافي ترتعش، والعرق يتفصد غزيراً من جبينى، ورجع الصدى يملأ رأسى بالضجيج، وبدور التى تنادينى لم يعد يحجبها عنى إلا هذا الباب الصغير، الذى لا يحمل اقفالاِ ولا أسياخاً. استعملت الفأس في إزاحة دائرة من الجبس

والحجارة تحيط بالباب، ثم أمسكت بإحدى نتوءاته واستعنت بكل قوتى على فتحه. بدأ الباب يتحرك حركة بطيئة ويصدر صريراً موحشاً، عالياً، كأنه الصراخ. اختفي الغناء تحت صخب هدير هائل ارتفع من عمق الكهف، وبدأ الهواء الأصفر الذى كان محتجباً خاف الباب يتسال عبر الانفراجة الضئيلة. كان هواء ساخناً، فاسد أ، كريه الرائحة، يلفح وجهى ويصيبه بالالتهاب. أدركت هول ما حدث، فصرت أدفع الباب لكى يعود مقفلاً كما كان. ولكن الهواء الذى تحرك مثل بركان يستيقظ من نومه، ضرب بدفعاته القوية باب الكهف وقذف بى فوق الأرض. نهضت أعدو، يملأنى الرعب ويتقاذفنى الهواء. كانت الرياح الصفراء قد سبقتنى تعصف بالقصر. تضرب النوافذ والأبواب، وتمزق الستائر. رأيت الناس يخرجون في فزع من قاعة الاحتفال. يتصايحون ويرتطمون ببعضهم بعضاً، يبحثون عن المدارج التى تقود إلى مخزن المؤونة تحت الأرض للاحتماء بها من عنف الاعصار. لم أكن أدرى ماذا أفعل. وجدت نفسى أصرخ منادياً نرجس القلوب علها تعرف طريقة لإغلاق الكهف. سمعتها من خلال الصياح والضجيج وعصف الرياح ترد

على ندائى. قاومت اتجاه الريح حتى وصلت إليها. عانقتها ونحن ملتصقين بالجدار قائلاً لها بأننى أنا الذى فعلت ذلك، حطمت باب الغرفة السرية، وأيقظت الجحيم النائم في الكهف. أتشبث بها وأصرخ بشكل هستيرى:

- أنا الذى فعلت ذلك.

وهى تصيح من خلال عصف الرياح:

- لماذا؟ لماذا ؟

أمسكت بيدى تسحبنى وراءها وهى تهبط الأنفاق. لم أشأ أن أذهب معها. كنت أشعر بكراهية لنفسى، ورغبة في الهروب من أمام هذه المرأة. تركت يدها، وأسلمت نفسى إلى دفعات الريح تسوقنى خارج القصر. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ نرجس القلوب تقولها. الجنين الذى اكتمل نموه في بطنها يقولها. الأبواب والنوافذ التى تتحطم وهى تضرب الجدران تقولها. لماذا؟ لماذا"؟ لماذا ؟. الطيور التى خرجت من مخابئها وصارت تتساقط ميتة فوق الأرض تقولها. أذهب مترنحاً صوب البوابة التى تفضى إلى الصحراء، منها جئت وإليها أعود مرة أخرى. تتقاذفنى الرياح ويملأنى احساس بالعار والغثيان والندم والخوف من الهلاك. ها قد تحققت

الكارثة وضاعت مدينة عقد المرجان. الناس يهرولون عبر الشوارع يتصايحون ويحتمون بالأعمدة والأقواس والجدران. بدأت الأشجار تفقد مقاومتها وتسلم أزهارها وأوراقها وثمارها لأمواج العاصفة تتقاذفها. وجدت نفسى أعبر البوابة وأعدو وسط الصحراء. لم أقو على الالتفاف لإلقاء نظرة أخيرة على المدينة التى يفتك بها الاعصار. أركض، وأركض، وأركض. لماذا"؟ لماذا؟ لماذا ؟. مدينة اكتملت زينتها وفاض كأس بهائها، فكان لابد أن تحترق وتموت. تختفي من فوق وجه الأرض بأهلها وأعيادها وأشجارها، بأغانيها وفراشاتها وطيورها وسواقيها. إنه ذلك الخلل. ذلك العطب الأصيل الذى ظل على مدى التاريخ يشعل الحرائق ويصنع الحروب ويبيد المدن والبشر. كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث. أعرف أنه إرث أتقاسمه مع الناس جميعاً، واحمل حصتى معى. قوة غشيمة، بدائية، عمياء، هى التى أفرخت جرائم القتل، وحفرت أودية الموت والهلاك، واخترعت المشانق والسجون وغرف التعذيب الوحشى. قوة تنام في تلافيف الأدمغة، وما أن ترى إنجازاً بشرياً حقق اكتماله وجماله ونضجه، حتى تتحرك بكل قبحها ودمامتها،

تفسد الحياة وتلطخها بالدم والصراخ، تستيقظ كالأفعى التى اتخذت لها مكاناً سرياً تنام فيه بين ألياف وأغشية المخ، وتتحرك لتزرع الموت الأسود في الأنسجة والشرايين. عطب أصيل، كنت أدرك دائماً وجوده، وأخاف غدره وخديعته. ولد معنا، ونمى بنمونا، وزرع جرثومته التى تنغل في دمائنا جميعاً، بما في ذلك أهل هذه المدينة الذين حققوا سلوكاً يليق بالأنبياء، وما أن رأوا قذيفة تتفجر ناراً ودخاناً وموتاً، حتى نسوا أعراس القلب وخرجوا يتنادون للقتال وينفخون أبواق الحرب. أدرك الآن وأنا أواجه هلاكى، أننى لم أكن ضحية تلك الغرفة السرية المدفونة في الجبل، وإنما ضحية غرفة سرية أخرى مدفونة في كهوف الذات، تمتلئ بهواء أصفر ظل ملوثاً منذ أن قتل قابيل أخاه هابيل. غرفة مهما وضعنا فوقها الأقفال وأسياخ الحديد، وتظاهرنا بأنه لم يعد لها وجود، وسمحنا للحياة بأن تمضى في مسارها، فلابد أن تكشف ذات يوم عن نفسها، وتغمر الدنيا بهوائها الملعون.

لم أعد أقوى على الركض، ولم أعد أستطيع أن أرى شيئاً بعد أن تورمت عيناى، فصرت أتحسس الهواء كالعميان. كنت قد تقيأت كثيراً وبدأت أشعر بالاختناق.

سأموت بعد أن منحتنى مدينة عقد المرجان أزهى لحظات العمر، فكافأتها بأن أطلقت عليها الجحيم الأصفر النائم في سراديب الجبل وسراديب الذهن. لأمر ما أردت أن أحطم الزمن الأسطورى، وأدمر المدينة التى كانت أكثر بهاء مما تطيقه مشاعر إنسان منذور للغناء. لم تكن بدور تغنى إلا في ذهنى. ولم أكن منساقاً لكسر الباب إلا بإرادتى وإرادة العطب الناغل في دمى. أنا الذى قتلت هذه المدينة وقتلت نفسى. اكتشفت أننى لا أجد هواء أتنفسه. أدركت أننى هالك لا محالة. مزقت الرداء عن صدرى، وأجهدت نفسى في التقاط الهواء دون جدوى. ارتميت فوق الأرض أمزق جلدى، وأحاول أن أفتح ثقباً في صدرى يتسلل منه الهواء. امتلأ صدرى بالدم والجروح، وتهالكت فوق الرمل والحصى ألفظ آخر أنفاسى.

عندما أفقت بعد ذلك، كنت مندهشاً لأننى لا زلت حيا. فقد كنت على يقين بأننى عانيت سكرات الموت اختناقاً. لا أدرى كم مضى من الوقت منذ أن استيقظت من هذا الاغماء الذى حسبته موتاً، أو هذا الموت الذى وجد في اللحظات الأخيرة انقاذاً. لا شك أن وقتاً طويلاً قد مضى. فقد توقف

الاعصار، وتراجع النهار. زايلتنى حالة الفزع وعاد لى بصرى، ولكن الظلام جاء يحجب الرؤية، إلا من ضوء شمعة خافت ينوس فوق صخرة كبيرة. تنبهت إلى أن الأرض التى أرتمى فوقها لم تكن رملاً وحصى، وإنما أرضاً صلبة صخرية باردة. وما أن ألفت عيناى عتمة المكان، حتى أدركت أننى أرتمى بين أربعة جدران، وأن الغرفة تشبه غرفة الشيخ الصادق الذى أوفدنى منذ عام مضى في هذه الرحلة. استويت جالساً وفتشت عنه بنظراتى فلم أجده. الغرفة غرفته، وموقد النار المصنوع من الفخار موقده، إلا أن جمراته مطفأة. وكانت الغرفة خاوية، لا تحتوى عدا الموقد والشمعة إلا على هذا الضريح الذى حسبته حجراً. لابد أن الرجل توفي أثناء غيبتى، فبنوا له هذا القبر. وصاروا يوقدون له الشموع توسلاً لبركاته. اكتشفت أننى الآن أرتدى ذات الملابس، وأضع في معصمى ذات الساعة التى رميت بها في الصحراء، فكيف ترانى عثرت عليها في ذاك الخلاء. وعدت لارتدائها دون أن أدرى. بدا لى الأمر غريباً، ولكن الجراح ما تزال في صدرى، وخيوط الدم ما زالت طازجة تسيل على بدنى، وتلوث قميصى. آثار

الالتهابات في عينى، والهواء الأصفر لاذعاً، مرا، استشعره على طرف لسانى. وبقاياه تغطى شعرى وأهدابى. تنبهت وأنا غارق في حيرتى أننى أحسست منذ لحظات، وقبل عودتى إلى تمام وعيى، أن أحداً كان يلبسنى ملابسى، وأن أعوان الشيخ عندما رأونى أعود عارياً، ساعدونى على ارتدائها. كنت حائراً مهموماً، ولا أعرف تفسيراً لكل هذا الذى حدث معى، وكيف عدت حياً بعد موتى، وكيف تركت الاعصار الذى أهلك المدينة، ونجوت وحدى، لاستأنف حياتى في المدينة التى أنشأتنى، وأجد في غرفة الشيخ من ينتظرنى بملابسى ويضعها فوق جسمى. وقفت مستنداً إلى الجدار، وخرجت مترنحاً إلى سقيفة البيت. نفضت الغبار الأصفر الذى كان يغطى وجهى ورأسى، وعبرت العتبة إلى الزقاق وقد أحكم الظلام حلقاته. مشيت أجر الخطى، وأتكئ على الجدران، عبر أزقة مظلمة، خالية من الناس والحياة. حتى وصلت إلى شوارع مأهولة، عامرة بالضجيج، تضيئها مصابيح كهربائية أعشت بصرى الذى ألف أضواء القناديل والفوانيس. دخلت ميداناً يزدحم بالحافلات وسيارات الأجرة وعربات الخضار، هاجمتنى رائحة زنخة، هى رائحة

القطران مختلطاً بأدخنة عوادم السيارات، ورأيت ساعة مضيئة معلقة بإحدى البنايات تشير إلى الساعة الثامنة. مشيت متلفتاً شمالاً ويميناً خشية أن تدهسنى إحدى الحافلات الكثيرة التى تتحرك وكأنها جعارين فولاذية كبيرة حمراء تملأ الميدان. وما أن رأيت سيارة أجرة فارغة حتى أوقفتها، وقفزت بجوار سائقها، الذى يضرب مزماره، يضيف ضجيجاً إلى الضجيج، ويخترق بنا الزحام والدخان ورائحة المازوت والقطران. ها قد عدت إلى مدينة العصر التى ما كنت أحسب أننى سأعود إليها، وما ندمت لحظة على فراقها، أو شعرت يوماً بأننى أنتمى إليها. وذاهلاً صرت أنظر إلى واجهات المتاجر والعمائر، وأتأمل معالم الطريق الذى يقود إلى بيتى، محاولاً أن أكتشف التغيير الذى طرأ على المدينة، مستحضراً صورتها قبل سفرى، فأحس بأن تلك الصورة بعيدة، باهتة في ذاكرتى، وكأننى غبت عنها عمراً كاملاً لا مجرد عام واحد. كان رأسى يزدحم بشتى الأفكار والانفعالات، وكنت حزيناً للمصير الذى تعرضت له عقد المرجان بسبب حماقتى وجهلى، وحزيناً أيضاً لوفاة الشيخ الصادق أثناء غيبتى، شديد الأسف والأسى لأننى لن أجد

أحداً غيره يفسر لى ما غمض من أسرار رحلتى. ترى ما الذى سيقوله أهلى وزملائى عندما يروننى. لابد أنهم فقدوا الأمل في عودتى، واعتبرونى ميتاً بعد غياب عام كامل. ترى ما الذى حدث لفاطمة، وهل مازالت تنتظرنى أم أنها أعادت ترتيب حياتها بما يلائم زوجة فقدت زوجها، لن ألومها إذا فعلت ذلك، ولن ألوم أحداً من أهلى إذا تصرف في بيتى بالبيع أو الكراء. وصلت إلى باب الشقة وأردت معالجته بالمفتاح الذى وجدته ملتصقاً بجيب السترة، ولكننى آثرت أن أطرق الباب تحسباً لأى ساكن جديد. سمعت حركة تصدر من داخل البيت، فزررت سترتى وطوقت بها صدرى، لكى لا يرى الساكن الجديد آثار الدم والجروح. فتح الباب، ولم تكن سوى فاطمة التى فتحته. أفرحنى وجودها، ووقفت متباطئاً في الدخول أنتظر وقع المفاجأة عليها، ولكنها سألتنى أن أدخل بسرعة، لأنها تركت طنجرة تغلى فوق النار. دخلت في حين ذهبت هى راكضة إلى مطبخها، اندهشت لهذا الأسلوب الذى استقبلتنى به، ولم أعرف كيف أعود عودة رجل من موته، فتلقانى بكل هذا البرود وعدم الاكتراث. كان الأثاث داخل بهو البيت مازال في مكانه لم يطرأ عليه أى

تغيير، وقماش النايلون الذى يغطى طاولة الأكل هو ذات القماش الذى تثقبه الحروق، ولا أدرى ما الذى أثارنى، وأرسل موجة عاتية من الكآبة تغمر صدرى، فارتميت فوق الكرسى، وانكفأت فوق طاولة الأكل أبكى وأبكى. بحرقة ومرارة صرت أبكى فراق تلك المدينة التى أهلكها الاعصار. أتذكر ما كافأتها بها وأبكى، أتذكر نرجس القلوب وابتسامة عينيها والجنين الذى تحيك له دثاراً للشتاء. أتذكر البشر الذين أكرموا وفادتى، وأسرفوا في محبتهم لى، أسكنونى أجمل قصور الدنيا وجعلونى أميراً لأبهى مدينة، فخذلتهم وأرسلت ريح الكهوف وشياطين الروح تقضى عليهم، ثم تسللت هارباً إلى الصحراء، عائدا إلى هذا البيت، وهذه المدينة، وهذه المرأة. سمعت فاطمة بكائى، فجاءت تسألنى عن السبب الذى يبكينى. رأت خيوط الدم التى تخضب قميصى، والخدوش التى تملأ صدرى، فأبدت انزعاجاً مما رأت، وركضت إلى صندوق الدواء تبحث عن مادة تطهر بها الجروح. سمعتها تسألنى إن كنت قد اشتبكت في عراك مع أحد، وتمد يداً تحمل قطناً لمعالجتى. أهملت سؤالها، وتناسيت للحظات برود استقبالها، وسألتها عندما انتهت من مداواتى، إن كان غيابى

كل هذه المدة قد أقلقهم. لم أتلق رداً سوى نظرة حائرة لم أعرف لها تفسيراً. سألتها مرة أخرى عما حدث لها ولأفراد عائلتى أثناء غيابى، وعما فعلوه عندما اختفيت فجأة دون أن أترك خبراً أو أثراً، وما إذا كان الشيخ الصادق أبو الخيرات قد أبلغهم قبل وفاته بما حدث لى. رأيتها تنظر باندهاش واستغراب، وكأنها ارتكبت فعلاً فاحشاً يجعلها ترتبك ولا تقوى على الكلام. لعل شيئاً خطيراً حدث أثناء غيبتى. لعلها اعتبرتنى ميتاً، وانتزعت حكماً بانتهاء زواجها منى، واتخذت لنفسها زوجاً غيرى، أسكنته في بيتى، وما غن رأتنى حتى اختلقت عذراً كى تهرب من مواجهتى. لم أستطع أن أكتم غضبى أكثر من ذلك.

أمسكت بها من كتفيها، أهزها قائلاً:

- هل أختفي كل هذه المدة وأعود فلا أجد إلا هذا البرود والارتباك. أخبرينى بسرعة ماذا حدث.

أشاحت بوجهها باكية، في حين واصلت الإمساك بها، وأنا أتميز غيظاً.

- تكلمى وقولى ما الذى تريدين إخفاءه بهذا البكاء.

- أبكى لأننى أراك تعود مريضاً مرة أخرى.

- إنكم أنتم سبب مرضى وجنونى، وما إن تركتكم حتى وجدت أناساً عشت معهم عاماً كاملاً لا أعرف إلا بهجة القلب والروح.

- ولكنك لم تغادر البيت إلا منذ ساعة واحدة فقط.

ومصعوقاً صرت أنظر إليها، لأن ما قالته شىء لا يمكن أن يصدقه العقل. وقعت منهاراً فوق الكرسى وأنا مازلت أحدق في المرأة التى قالت هذه الجملة الغريبة. هل كان هذا الغياب ساعة فقط. إن هذه المدة لا تكفي لأكثر من الذهاب إلى المدينة القديمة والعودة منها، فهل كل ما حدث لى حدث في تلك الدقيقة الفائضة التى تفصل بين رحلتى الذهاب والعودة. هل يمكن أن يكون ذلك صحيحا؟ هذه المدينة التى أهدتنى جواهر قلبها، وسقتنى من رحيق أعنابها وزهورها، وزوجتنى أميرتها، وعقدت أواصر الحب بينى وبين شعرائها وحكمائها ومزارعيها وصياديها وملاحى مراكبها، ونسجت لى حكاية عشق مع أجمل مغنياتها. هل كان ذلك كله مجرد وهم. هذا العالم الذى استمتعت بأعياده، وتسلقت جباله، واغتسلت بمياه ينابيعه، وذهبت للصيد في غاباته، وغرست الأشجار في بساتينه، وشاركت عاماً كاملاً

في مهرجاناته اليومية، ورأيت فيه تقلب الفصول، ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء وربيعاً مرة أخرى، وتعلمت فيه ركوب الخيل وفنون الرماية والصيد، واستوعبت عدداً من أساطيره وحكاياته، وحفظت عن ظهر قلب بعض أشعاره، وعدت بحصيلة من أغانيه وألحانه، هل كان حلماً لم يستغرق سوى دقيقة واحدة؟ أليس ذلك هو المستحيل بعينه؟ هل أصرخ في وجه هذه المرأة قائلاً بأن كلامها ليس سوى هلوسة وتخريف. هل أسرد لها الآن الأشعار التى أحفظها، وكلمات الأغانى التى وعتها الذاكرة، وأخبرها بما سمعت ورأيت وعايشت من تجارب وأحداث يقتضى الحديث عنها أياماً بعدد الأيام التى عشتها هناك، لأن لكل لحظة عمقها وثراءها وتميزها عن اللحظات الأخرى.

كانت فاطمة ترتدى ثوباً منزلياً يفيض على جسمها، بدا لى أنه ذات الثوب الذى تركتها ترتديه قبل أن أترك البيت، وتطوى أكمامه إلى مرفقيها بذات الطريقة. وكان الجزء الأول من ألف ليلة وليلة مفتوحاً ومقلوباً فوق طاولة صغيرة بمدخل الصالون كما تركته منذ عام مضى. فهل دخل العالم في كبسولة اللازمن بحيث توقف الزمان عن سيولته

وجريانه، ليسمح لى بالعبور إلى تلك المدينة الأسطورية، وينتظرنى سنة كاملة حتى أعود ليواصل مساره من جديد. ماذا إذن عن الشيخ الصادق الذى وجدته يستقبلنى فوق سجادته ذات الأهداب الذهبية، ويتيح لى هذه الرحلة ثم أعود فألقاه متوفياً، نائماً في ضريحه، هل كان هو أيضاً وهماً وخداعاً للبصر؟ وهل كانت غرفته التى ذهبت إليها، وتصورت أنه مازال جالساً بها، محاطاً بأعشابه وكتبه وأبخرته وموقد ناره، لا تحتوى إلا قبراً تجسد لى في تلك اللحظة بشراً سوياً؟ ثم ماذا بشأن هذه الجروح وخيوط الدم التى تملأ صدرى، وآثار الالتهابات في أجفانى، وطعم الهواء الأصفر على لسانى، وأكداسه التى كانت تغطينى عندما أفقت. هل يمكن لحلم لم يدم إلا دقيقة واحدة أن يترك آثاراً كهذه؟ إن ما حدث معى أكثر غموضاً وتعقيداً من أن أستطيع تفسيره واستيعابه في لحظات قصيرة. كانت فاطمة قد تركتنى وذهبت إلى غرفة الصالون تهاتف أخى، تستنجد به كعادتها عندما يداهمنى المرض. جاء أخى منزعجاً، يسأل عن سبب هذه الانتكاسة الجديدة، بعد أن رآنى أتعافي وأتحرر من مرضى. ما إن رأيته يدخل البيت حتى وقفت

أريد أن أعانقه، فقد أحسست فعلاً بأنه مضى أكثر من عام على فراقنا. ولكننى قاومت هذه الرغبة، لكى لا أضيف إلى الموقف المتوتر مزيداً من التوتر وسوء الفهم. طمأنته إلى أننى بخير وعافية، وأن الخدوش التى في صدرى لم تكن إلا بسبب الظلام الذى حجب عنى كوم حجارة زلّت فوقه قدمى.

وعندما سألنى عن المكان الذى ذهبت إليه هذا المساء قلت باقتضاب:

- ذهبت أزور الشيخ الصادق أبو الخيرات، جارنا القديم.

وبوجه احتقنت فيه الدماء، فزعاً ورهبة، قال:

- ولكن الشيخ الصادق مات منذ أكثر من عشرين عاماً.

قلت بسرعة:

- أقصد أننى ذهبت لزيارة ضريحه.

عاد إلى الوجه ارتياحه، لا حاجة بى لأن أخبره بشىء مما حدث، ولن أقول له سوى هذه العبارات الآمنة، التى تعيده هانئاً إلى بيته، بعد أن جاء منزعجاً مما نقلته إليه

فاطمة. لا داعى لإطالة عمر هذه اللحظات، فأنا أيضا أحتاج إلى وقت لاستجلاء هذه التجربة الغريبة التى عشتها.

- ولكن ما هذا الذى تقوله فاطمة عن فقدان إدراكك للزمن.

- لا تشغل بالك بما تقوله فاطمة. إن هو إلا حلم رأيته أثناء زيارتى لضريح الشيخ.

- كان شيخاً عارفاً با ، فما الذى رأيته في مقامه المبارك.

لم أقل شيئاً. نهضت واقفاً وسألته أن يعذرنى لأننى أحس بالتعب وأرغب في النوم. تركته جالساً يشرب قهوته وذهبت لكى أنام.

أبدلت ملابسى وتمددت فوق السرير. كنت في حالة من الانفعال والتوتر منعت عنى النوم برغم الجسد الذى أنهكه الركض في الصحراء، والصراع مع رياح الموت. أعرف الآن يقيناً أننى كنت شاهداً على تجربة خارقة، لا يمكن أن تقاس بما ألفناه من مقاييس، عن الزمان والمكان، والحركة والمسافة، والحلم واليقظة، والوهم والحقيقة. لتكن هذه الرحلة المبهرة، المثيرة، المباركة، حلماً أو رؤيا أولا

تكون. لتكن سراً، أو إلهاماً، أو معجزة جاءت بفضل صاحب الضريح أو لا تكون. ليكن الزمن توقف خلالها، أو انطلق هارباً من كل قيد، عائداً إلى الوراء ألف عام. ليكن ما عشته عاماً تقاص حتى صار دقيقة، أو دقيقة احتوت فصول العام الأربعة. كما تحتوى النواة المدفونة في الأرض نخلة الغد المليئة بالعراجين، أو قطرة العطر حقلاً من الورود، أو قطرة المطر موجة شربتها الشمس، أو لاتكون. فقد عرفت أثناء هذه الرحلة أكثر أيام العمر عمقاً وامتلاء وسطوعاً. إننى أستطيع أن أذكر الآن بوضوح وجلاء كل ما رأيت وسمعت، واستحضر كل تلك العلاقات العميقة، الحميمة، التى أنشأتها مع أهل المدينة، وكل الوشائج التى ربطت بينى وبين ما احتوته من أشجار وطيور ومياه وأحجار. لن أنسى نرجس القلوب، الزهرة الملكية التى أثملتنى بأريجها، وأضاءت بسنائها الجميل سماء القلب، لن أنسى ما كانت تحمله لى كل صباح من فرح فوق كفيها، وما استقر في الذاكرة من أشعار المتصوفين التى كانت تداوينى بها. لن أنسى بدور، عصفورة العشق وقيثارة اللحن القادم من سقف الكون، لن أنسى ليلة الحب التى عشتها معها فوق حشية قش سحرية، ولن أنسى

أغانيها الموشاة بألوان الفجر التى غنتها بعد أن تحررت من أطر الجسد واتحدت بموجات الضوء والهواء. لن أنسى الإسكافي جلال الدين، وحكمته التى تعلمها من الطيور التى تعرف منابع النور، أو الشاعر ياقوت، الذى يضبط حركته مع حركة النجوم، وقصائده التى تخاطب كائنات العالم ذات الوجود الأثيرى. إن كل ما قالوه سيبقى منقوشاً فوق صحائف القلب. وإذا كان اعصاراً مجنوناً قد دمر تلك المدينة، فإننى سأختزنها في ذاكرتى مجللة ببهاء الضوء القزحى، عابقة بعبير أشجار الحب، كما كانت قبل الاعصار. سأظل وفياً لذكرى تلك الأيام التى عشتها أميراً لمدينة عقد المرجان، مدركاً أن ذلك كله لا يمكن أن يكون قد حدث في يوم، أو أسبوع، أو شهر. لقد عشت ذلك العام وكأنه عمر كامل، وعدت من تلك الرحلة مملوءاً بالدهشة والانبهار، لأننى استطعت النفاذ إلى المطلق، وعبرت الزمن المحدود إلى عوالم الزمن اللانهائى، مترع القلوب باحساس من ارتوى من الينابيع التى تصنع الفرح الدائم، الذى لا يعرف الإنسان بعده جوعاً أو عطشاً، ولا يعرف مرضاً أو حزناً.